وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

مختارات
من القصة القصيرة التركية



ترجمة: عمار أحمد حامد

مختارات من القصة
القصيرة التركية

تصميم الغلاف
فراس نعـوف

مختارات من القصة

القصيرة التركية

ترجمة: عمار أحمد حامد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

مختارات من القصة القصيرة التركية / ترجمة عمار أحمد حامد . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ٢٨٨ ص؛ ٢٠ سم.

(قصص مختارة؛ ١)

١ - ٨٩٤,٣٥ ح ا م م ٢ - العنوان ٣ - حامد
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

قصص مختارة

«١»

سامي باشا زاده سيزاي

ولد سامي باشا زاده سيزاي في عام ١٨٥٨ في استانبول، وتعلم اللغة العربية، والفارسية، والفرنسية، والألمانية، وفيما بعد تعلم اللغة الإنكليزية. انضم إلى العمل الحكومي وبقي يشغل وظيفة السكرتير الثاني لدى السفارة التركية مدة خمس سنوات في إنكلترا. فر إلى باريس في أثناء الحكم القمعي للسلطان عبد الحميد الثاني، وبدأ كتابة المقالات حول الحرية في جريدة جمعية الاتحاد والترقي. عندما عاد إلى تركيا بعد إعلان الإصلاحات الدستورية في عام ١٩٠٨، تم تعيينه في السفارة التركية في إسبانيا حيث أمضى هناك حوالي اثنتي عشرة سنة قبل أن يتقاعد في عام ١٩٢٢. توفي في استانبول عام ١٩٣٥.

ساهم سيزاي بنجاح في نقل فنِّ القصة القصيرة إلى الأدب التركي، كما نقل مذهب الواقعية إلى الرواية التركية. لم يكن كاتباً غزير الإنتاج، لكن كتاباته كانت تلقى صداها

لــدى القــراء. اختــار موضــوعات صــغيرة هامــة لكتاباتــه واســتخدم لغـة العامـة اليوميـة، حيـث طورهـا إلى لغـة أدبيّـة رائعة. تحتوي هذه المجموعة على أحد أكثر قصص سيزاي شعبية، وهي المهرج .

المهــرج

سامي باشا زاده سيزاي

في المنطقة المجاورة للحسكة، وفي زقاق معتم، كان هناك بيت بطابق واحد، مؤلف من ثلاث غرف أشبه بالقبر. كان محاطاً بفضاء أبدي. كان مهملاً لفترة طويلة. تفتت لوح خشبي في السقف، والآجر اقتلع من الأرضية، والأحجار التي تدحرجت من الجدار، بقيت على حالها منذ عدة سنوات في المكان الذي استقرت فيه.

في تلك الأيام، كانت هناك امرأة يونانية عجوز قبيحة، تتسم بالروعة والصفاء الذي يميز الساحر، تخرج من هذا المنزل، وتذهب لتشتري بعض الأشياء التي تحتاجها في حياتها اليومية، ثم تعود مسرعة وهي على عجلة من أمرها، تدخل ثم تختفي. وفي حديقة صغيرة ملحقة بالمنزل كانت شجرة هائلة. عندما غادرت شمس تموز الحارقة هذه المناطق المجاورة في استانبول بدأت هذه

الشجرة بتوزيع الريح المختبئة في مكان ما بين أوراقها، فكانت أشبه بمروحة خضراء ضخمة ترسل الهواء المنعش إلى المنزل وإلى المنطقة المحيطة به.

في يوم جمعة ما في فصل الصيف، وقبيل الظهر، خرج من هذا المنزل رجل يتأبط رزمة صغيرة مغلفة، ثم أغلق الباب وراءه بهدوء، وشق طريقه. وإن راقبه أحد ما من الخلف، يستطيع أن يحكم من اتساع كتفيه وظهره، أنه كان رجلاً يميل قليلاً إلى البدانة وعمره ٣٣ عاماً، وأنه يجد صعوبة شديدة للحفاظ على وجهة سيره التي يرغب بها بسبب وزنه الزائد وساقيه القصيرتين البدينتين اللتين تحملانه.

بدا الحزن على هذا الرجل الذي يسير في الشوارع المعزولة في ذلك الحي وكان مستغرقاً جداً في أفكارشق طريقه ليجعل الناس تضحك. توقف أمام مبنى مصنوع من ألواح خشبية مزود بدعائم جانبية لمنعه من الانهيار. وعلى باب المبنى ملاحظة مثبتة عليه كتبت بخط عريض، بأحرف سوداء على قصاصة ورقية بيضاء:

« أداء إيمائي يقوم به مهرج مشهور» .

وكان المهرج المشهور في أيام الجمع والآحاد يعرض كل أنواع المهارات ويقدم تسلية مضحكة في هذا المكان . وبتشجيع من زبائن مستمعين مهتمين، كان المهرج يقدم فقرات جديدة تماماً وغريبة على المسرح كل أسبوع .

كان هذا الرجل هو نفسه المهرج . دخل من باب مسرحه، وفتح رزمته، ارتدى قلنسوته الاسطوانية الشكل البيضاء كالمعتاد، ودلك وجهه بالطحين، ووضع أحمر الشفاه على عينيه اللتين تذكران المرء بعيني الضفدع . وبعد مرور ساعة من الزمن، انشغل بعرض موهبته في التهريج بين الضحكات المجلجلة ومطالبة الجمهور الذي كان يزيح عن رأسه همومه كلّها مهما كانت .

كان المهرج، في أثناء العرض، يجعل المتفرجين ينفجرون ضاحكين وهو يؤدي دور العاشق، كان يخرج لسانه من مكانه قدر استطاعته، معبّراً عن حبه للفتاة، وحركاته البهلوانية التي تشير إلى الاهتمام الذي لقيه من محبوبته . وسيجارة في فمه، وكان المتفرج الذي يجلس منحنياً إلى أمام العمود المتحرك الذي أقيم لحمل الغطاء فوق رؤوس المتفرجين، يقول :

«هل الأسلوب الذي يخرج فيه المهرج لسانه يجعلك تضحك إلى حد الإعياء».

وفي الواقع أكد كلامه هذا معظم الذين يشغلون المقاعد الصغيرة في المسرح.

وفي مقصورة قرب المنصة، جلست فتاة تشبه ابتسامتها ابتسامة الأطفال التي يمكن أن تكون عزاء للذين يعانون من أحزان الدنيا، كانت تصفق بيديها بفرح وسرور، تقديراً لأداء المهرج. ابتسامة مباركة علت شفتيها الصغيرتين الورديتين. وهي تلوح بذراعيها، جعل منها كماها الواسعين تبدو كعصفور مغرد.

كانت هذه الفتاة التي تصطحبها والدتها العجوز تدعى إيفتاليا، ويبلغ عمرها عشرين عاماً اعتادت القدوم إلى المقصورة نفسها كل أسبوع تقريباً. عندما سألتها أمها: «هل تستمتعين هنا كثيراً، يا ابنتي؟» أجابتها الفتاة إن المهرج يشبه كلبها المحبوب الذي مات منذ فترة قصيرة، وأن وضعه يذكرها في بعض الأحيان بقردها الذي لم تره سوى مرة واحدة والذي أحبته بجنون!

في ذلك اليوم، قامت الفتاة التي ارتدت ثوباً قطنياً أبيض ورسمت ابتسامة ساحرة على شفتيها، برمي الورود من مقصورتها

كتذكار لتقديرها الساحر. كانت هذه الورود تصيب وجه المهرج وصدره، فوضع يده على قلبه وبدأ ينتحب بمرارة شديدة كحيوان ضار تلقى ضربة في أكثر الأعضاء إيلاماً من جسده.

مرت دقيقتان، تعالت فيها ضحكات الجمهور دون انقطاع، بينما المهرج يجلس على الأرض أمام الجانب الداخلي من المسرح، وهو يبكي ويتنهد بمرارة. كان المهرج المسكين يحب هذه الفتاة إيفتاليا، حالة جسد غير كامل يقع في حب مخلوق كامل!

على أية حال، لم يكن يملك الشجاعة ليخبر أحداً عن هذا الحب الذي كان يخفيه في أعماق خفية من قلبه، ولم يستطع حتى أن يخبر الخادمة التي كانت تشاركه كل شيء منذ أن كان طفلاً. وخلال حياته، لم يحظ بنعمة نظرة مسكنة من امرأة، أو بمعاملة طيبة من أحد. كل ما كان متوقعاً منه هو أن يضحك الناس! يا للسخرية! وحتى في تلك اللحظة من الحزن وخيبة الأمل عندما كان يذرف الدموع، كان الجميع من حوله يضحكون من أعماق قلوبهم.

ومع غروب الشمس عند نهاية العرض، كان يسير نحو منزله بحذر في الطريق نفسها التي قدم منها، فرك سترته ومرة أخرى

تأبط رزمة أخرى. فتح باب غرفته. وفي منزل لا يسكنه أحد سواه، تفقد فيما إذا كان ثمة أحد يجول خلسة في الأرجاء. فتح الآن النافذة ليتأكد من عدم وجود أحد يمر في الشارع. عندها فقط بدأ يفكر في حبيبته إيفتاليا.

لماذا كانت تضحك عليه كل هذا الضحك في أثناء العرض في ذلك اليوم؟ أخرج الزهور من صدره، وقبلها باحترام شديد قبل أن يعلقها في أعلى مكان من الغرفة. وقال لنفسه: "هذه الأزهار، آه هذه الأزهار ستقتلني."

وماذا لو كانت تستطيع أن تسليه ولو لمرة واحدة فقط!... هذه الغرفة وآواني الزهر ستسليها عندما تقص عليها القصص التي ستجعلها تضحك طوال الليل... رفع رأسه كأنه استيقظ من نوم كان يحلم فيه حلماً جميلاً. آه، كم كان قبيحاً، أضحوكة العالم بأكمله! بدأ بالبكاء.

مضى ذلك الشهر سريعاً. وفي اليوم الأخير من الشهر تلقى أخباراً سيئة. إيفتاليا، التي لم تأتِ إلى المسرح منذ أسبوعين، تزوجت. وفي يوم جمعة ما، زارت المسرح برفقة زوجها. والمهرج المسكين الذي جعلها تضحك، شق طريقه إلى منزله بخطوات

مسرعة . وأبقى في الطريق رأسه مرتفعاً كأنه لا يريد لأي أحد أن يعرف بمشاعره المرّة . وعندما وصل إلى المنزل، دخل غرفته وأثبت الرتاج من الداخل .

وفي اليوم التالي بعد الظهر، عندما لم تتلق زوجه العجوز منه رداً، بالرغم من قرعها على الباب حتى كادت أن تكسره لتفتحه، ارتعبت رعباً شديداً . وخافت أيما خوف، وجمعت الناس من الجوار وبمساعدتهم، كسروا الباب وفتحوه . وما إن دخلوا الغرفة، ضحك الجميع لأن المهرج، كان يمثل دور الرجل المشنوق، وجعل لسانه يتدلى من فمه بمهارة يعرفها الجميع !

المهرج المسكين، الذي أضحكَ الناس وهو حي، لم يتمكن أن يبكيهم وهو ميت . لم يكن أداؤه الأخير تمثيلاً، بل حقيقة واقعة مثل الموت ذاته .

* * *

عمر سيفيتين

يُعدّ سيفيتين واحداً من أعظم كتاب القصة القصيرة في تركيا ورائداً في استخدام اللغة البسيطة في الأدب التركي. ولد في عام ١٨٨٤، وتلقى معظم تعليمه في استانبول وإيديرين، بدأ عمله كاتباً بعد تركه الجيش. وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته، عمل مدرساً للأدب في أحد المدارس الثانوية في استانبول. توفي شاباً عن عمر يناهز الستة والثلاثين عاماً فيً عام ١٩٢٠.

يعود الفضل لسيفيتين في مساهماته في بعض القصص القصيرة في الأدب التركي. ويعدّ من أوائل الكتاب الذين عكست قصصهم جوانب الحياة كلها في تركيا في اللغة، والتعبير، وانتقاء الموضوعات. يستطيع القارئ في كل كتاباته أن يجد تعبيراً للقومية التركية والثقافة التركية، والأحداث

العادية من الحياة اليومية، وذكريات الطفولة، ومن الملاحظة الشخصية، والفلكلور التركي، والتاريخ، وقد استمد من هذه المصادر الرئيسة مواضيع قصصه. كما تجنب استخدام الجمل الطويلة، والزخرفة الشعرية في النثر، والتشبيه. كان أحد الغيورين على نقاء اللغة التركية.

المحسة[1]

ونحن نلعب في باحة الإسطبل، نستطيع أن نسمع أصوات المياه من الجدول القريب المخفيِّ وراء الأغصان الكثيفة من شجرة الصفصاف البرية. ذهبت الأم إلى المدينة. بينما كنت مع أخي حسان، الذي يصغرني بعام واحد، نمضي معظم وقتنا مع دادا روح، وهو سائس خيل يعمل لدى والدي. وكنا في كل صباح نهرع إلى الإسطبل حتى نكون مع الخيول - التي كانت أعظم شيء على الأرض لي ولأخي حسان. وكان امتطاء الخيول دون ركاب لنوصلها إلى الماء، بصحبة دادا روح، يعطينا إحساساً بسعادة لا تضاهى. كان حسان يخاف من امتطاء الخيل وحيداً، فقد اعتاد الذهاب مع دادا روح. كم كنا نسعد بتعبئة أكياس العلف، وتكويم

(١) المحسة: مشط يستخدم لتمشيط شعر الفرس.

القش في المعلف، ومسح الإسطبل، والأفضل من كل هذا، كان تمشيط الخيول ؛ كنت دائماً أغني بإيقاع ساحر أغنية " تيك تيك" التي يغنيها دادا روح وهو يستعمل المحسة على جسد تسون . وبإصرار لا يلين من جانبي، كان روحي يضعني على صهوة تسون ويعطيني المحسة . ويقول لي : "هيا" .

على الرغم من أني كنت أقوم باستخدام المحسة، إلا أنه لم يكن بإمكاني أبداً أن أقلد إيقاع دادا روح : "تيك تيك !" ولا أن أرى ذيل تسون خلال عملية التمشيط هذه، كي أحكم إذا كان يصادق على مهارتي في التعامل مع هذه الأداة . وهو ينحني إلى الأمام وإلى الأمام، كنت أجاهد لأرى فيما إذا كان الحيوان يهز ذيله كما يفعل عندما يمشطه دادا روح، لكنني كنت أفشل دائماً .

عندما كنت أصل إلى الإسطبل في كل مرة، يكون طلبي من دادا روح أن يأذن لي بتمشيط الخيول . وكان دادا روح يقول بإصرار : " لا تستطيع فعل ذلك يا عزيزي ."

" ولماذا؟"

" لأنك ما زلت بعد طفلاً . افعل هذا عندما تكبر ."

" ومتى سيكون هذا؟"

" عندما يصبح طولك بطول تسون !"

وبالكاد كنت أصل إلى خصر تسون .

بدا كأن تسون يحب التمشيط كثيراً جداً . وما إن يسمع " تيك تيك،" حتى يرفع أذنيه ويهز ذيله كمكنسة، ويتحرك بحركة دائرية بكل رشاقة . وما إن يشعر أن عملية التمشيط على وشك الانتهاء، حتى يبدأ بالرفس ليظهر استيائه . عندها يربت دادا روح مرتين على ظهره ويتجاوزه إلى الحيوان التالي !

وفي يوم ما، كان حسان ودادا روح قرب جدول الماء . وكنت وحيداً في الإسطبل . اعترتني فجأة رغبة جامحة لتمشيط تسون . بحثت عن المحسة لكني لم أجدها . هرعت إلى غرفة دادا روح التي لا نوافذ فيها والتي تقع في باحة الإسطبل . فتشت السرج والصندوق الخشبي ذي اللون الأخضر الموجود تحت السرير العاري . ووجدت بين الهدايا في الصندوق التي أرسلتها له أمي منذ عدة أيام محسة جميلة براقة مصنوعة من فضة ألمانية . كدت أصرخ من الفرحة . أمسكت بالمحسة، وهرعت مباشرة إلى تسون . بدأت

بتمشيط الحيوان لكنه لم يبق ساكناً . اعتقدت أن حواف المحسة حادة جداً وتسبب الألم لتسون، فقمت بفركها بحدة على جدار حجري . وفعلت هذا مرة ثانية . ومرة أخرى أبدى تسون عدم ارتياحه . خاب أملي . وانزعجت كثيراً من الأداة، فقمت بسحقها بحجر كبير، ورميتها في حوض ماء قريب، وهربت . تلك كانت نهاية الهدية من المدينة .

اعتاد الأب زيارة الإسطبل يومياً كل صباح . وفي اليوم التالي عندما أتى، كنت وحدي مرة أخرى في الإسطبل . كان حسان في المنزل مع خادمتنا بيرفن . استشاط غضباً عندما رأى المحسة مكسورة في حوض الماء عندما مر من هناك، صرخ قائلاً : " يا دادا روح ! "

كادت أنفاسي أن تتوقف خوفاً . كان دادا روح يتساءل ماذا حدث؟ .

سأله والدي، وهو يخرج المحسة من الحوض : " من كسرها !؟" .

قال دادا روح : " لا أعرف" .

تحولت عينا والدي إلي . وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، تطوعت بالقول :

"حسان ."

أجاب مستفسراً : " حسان؟" .

أجبته : " أجل، لقد تسلل إلى غرفة دادا روح البارحة بينما كان دادا روح نائماً، أخذها من الصندوق الأخضر وحطمها بالحجر ."

قال مستفسراً : " ولماذا لم تعلم دادا روح بذلك؟"

أجبته : " كان نائماً" .

قال لي آمراً : " اذهب وأحضر حساناً إلى هنا" .

خرجت وركضت في الممر الظليل إلى المنزل، وصرخت "حسان ! يا حسان !" وكان المسكين جاهلاً بما حدث . تبعني، ونحن نركض طوال الطريق . كان الأب لا يزال مستعراً غضباً . كانت مجرد نظراته كافية لأن تدب الرعب فينا حتى الموت . استدار إلى حسان، وصرخ :

" إذا كذبت، فسأطرحك أرضاً" .

أجاب حسان : " لن أكذب،"

" حسن، لماذا حطمت هذه المحسة؟"

نظر حسان إلى المحسة المكسورة التي يمسك بها دادا روح واندهش لما رآه. أومأ برأسه النحيل ذي الشعر الذهبي، وقال:

" لم أكسرها."

حذّره أبوه بلهجة غاضبة: " قلت لك ألا تكذب علي،"

أصر حسان قائلاً: " لم أكسرها،"

نصح حسان قائلاً: " إذا ما قلت الصدق، فلن ألمسك. فالكذب سيء جداً،"

ومرة أخرى دافع عن نفسه بالبراءة. وهذا ما جعل الشيخ حانقاً جداً. تقدم إلى الأمام.

" أيها الكاذب، ألا تخجل من نفسك؟" وصفع حسان صفعة قاسية على وجهه.

قال الأب آمراً وبحكم نهائي: " خذه إلى المنزل. لن يرى الإسطبل مرة أخرى. ليكن دائماً مع بيرفين في المنزل،"

أخذ حسان يبكي. أخذه دادا روح وخرج.

بعد ذلك، أصبحت لوحدي في الإسطبل. كان حسان محبوساً في الداخل، لم يسامحه الأب أبداً. وكلما أراد الإشارة إلى حسان،

كان يدعوه الأب بـ" الكاذب ." كانت ذكرى تلك الصفعة المدوية واعترافه ببراءته تجعل حسان يبكي وتنهمر الدموع من عينيه . عادت الأم . وكانت تلعن دادا روح لأنه فشل في إنقاذ حسان من أن يخبر الأب بأن الحصان يرتعد من المحسة التعسة .

وفي الصيف التالي، ذهبت الأم مرة أخرى إلى المدينة . وكان الإسطبل لا زال محرماً على حسان . وكان حسان يسألني عند المساء في الفراش كل أنواع الأسئلة التي تتعلق بالخيول .

" ماذا فعلت الحيوانات اليوم؟"

" هل المهرة تنمو الآن؟"

" هل تستطيع أن تصل إلى خصر تسون؟" إلخ .

وفي يومٍ ما مرض حسان، أرسل الخيال إلى المدينة ليحضر طبيباً . وراحت تزور منزلنا في كل يوم نساء من القرى . تحضر بعضهن طيوراً صغيرة لذبحها وربطها عنق حسان . لم يترك الأب حسان وحيداً ولو لحظةً واحدة . وبدا دادا روح مكتئباً ومتعباً . كما راحت ترى بيرفين وهي تبكي باستمرار .

سألت بيرفين ذات يوم :" لماذا تبكين؟"

أجابتني :" لأن أخاك الجميل مريض" .

سألتها مستفسراً :" وماذا سيحدث إن لم يشف؟"

" سيموت،" واستمرت في البكاء مرة أخرى . ورحت أبكي أنا أيضاً .

ومنذ أن مرض حسان، اعتدت على النوم مع بيرفن . لم أستطع النوم في تلك الليلة حتى ولو دقيقةً واحدة . كان وجه حسان يظهر لي باستمرار أمام ناظري . كنت أراه يبكي وهو يصرخ بي :" كاذب، كاذب، كاذب !"

وأخيراً أيقظت بيرفن .

قلن لها :" أريد الذهاب إلى حسان،"

" لماذا؟"

" أريد أن أتحدث إلى أبي ."

" حول ماذا؟"

" أنا من كسر المحسة ."

" أية محسة؟"

" المحسة التي من أجلها صفع والدي حسان العام الماضي ." وجدت صعوبة في إنهاء جملتي الأخيرة إذ أجهشت بالبكاء، أخبرت بيرفن بكل ما حدث وسألتها فيما إذا كان حسان سيسامحني، إذا ما أخبرت الأب بالحقيقة .

قالت لي بيرفن ناصحة :" أخبره في الصباح الباكر،"

قلت مصراً :" كلا، بل الآن،"

قالت لي :" سيكون الأب نائماً الآن، أخبره في الصباح . عندما يكون حسان مستيقظاً . قبله وابكِ أمامه حتى يسامحك . وسيسامحك . هيا الآن، اخلد إلى النوم" .

لكني لم أتمكن من النوم . وقبل الفجر بفترة طويلة، أيقظت بيرفن مرة أخرى . ودون أن أضيع دقيقة واحدة، أردت أن أتقيأ السم التي كان ينهش جسدي كله طوال تلك الأيام . اندفعت إلى الأسفل . وكان باب غرفة الرسم مفتوحاً . رأيت إمام القرية يجلس على السجادة في الغرفة . وإلى جانبه دادا روح والدموع تنهمر على وجهه المتغضن .

يا ويلاه ؛ لقد مات أخي حسان في الليل .

* * *

القســم

عمر سيفيتين

يا لتلك الأيام التي كانت، منذ خمسة أو عشرين عاماً ! كم كانت الحياة حلوة ! الحياة والمتعة، كان لكل يوم من تلك ألأيام مذاقٌ خاصٌ به وشكلٌ رائع . كان الرجال مختلفين، والنساء كن مختلفات جداً، وكذا كانت أرواحنا . حتى أكبر الخطايا كانت ترتكب مع الأخذ بعين الاعتبار والاحترام للدين، والإيمان، والتربية، وشرف العائلة، والأدب . كانت الخطايا ترتكب مع الأخذ بعين الاعتبار بالستر، دون أي خرق لقدسية الطهارة .

كنت في تلك الأيام معجباً بمنزل شهير للحاج حافظ مللا في دوغانسيلار . وكنت أحب بجنون فتاة تدعى مطلوب . لا زلت أرى أمام عيني إلى الآن ذلك المنزل المطلي بالأحمر المصفر الذي لم يعد اليوم سوى أثر بعد عين بعد أن أتى عليه حريق في السنوات

القليلة الماضية، مع جدرانه المغطاة بشجرة صريمة الجدي ونبات كثيف من اللبلاب، وحديقته التي تشبه جبال الألب، والبئر ذي الخطوط الرخامية والعجلة الخضراء. كانت الحاجة هانم سيدة مخلصة. تلف جسدها البدين بغطاء ضخم. وتنظر من خلال الغطاء الضخم بعينيها الزرقاوتين السماويتين، تبدو كملاك عجوز عالق بين الغيوم. لم تخرج من شفتيها كلمة مزعجة قط. ومن أعمالها الأساسية الوضوء، والصوم. وإذا ما أحبت إحدى الفتيات اللواتي يعشن معها، علمتها كيف تصلي.

كانت غرفة الحاجة خانم الصغيرة ذات السقف الواطئ والمنفتحة إلى الشارع أشبه بجامع صغير افتراضي. كما كانت توجد فيه كوة صغير أشبه بـ " المحراب" تتجه نحو القبلة. وعلى الأرض سجادة صلاة مشغولة يدوياً عليها رسوم، ومحشية بالصوف، تتركها بين الحين والآخر، لتذهب إلى المطبخ أو إلى الحمام حيث لا تنطفئ النار هناك أبداً. والفتيات اللواتي يعشن معها كن متشددات في الدين. لم تكن تسمح أبداً لأي واحدة منهن أن ترتدي الزي الغربي، أو أن تضع أحمر الشفاه أو المساحيق، أو أن تضع الكحل في عينيها.

وبثوبها المطبع المخطط بالمربعات وبمنديلها الملون بالأحمر الداكن، كانت مطلوب الشابة الممتلئة الجسم تبدو عذبة وجميلة. وعلى عكس فتيات اليوم، لم تكن ترمي نفسها على فور وصولي. كانت تقول لي: " هيا يا بني، إلى الحمام فوراً!"، ثم تأخذني بهدوء إلى الأعلى، لتغسلني، وتنظفني، وتجعلني أتوضأ. ثم تغير لي ثيابي، بعد ذلك أنزل إلى غرفة الحاجة خانم لأقبل يديها. كم مرة صلينا فيها جنباً إلى جنب في غرفتها، وخاصة في شهر رمضان! في إحدى تلك السنين، تعلقت بمطلوب في شهر رمضان كله. وقبل ساعة من السحور، كانت الحاجة خانم تقرع علينا الباب لتوقظنا. وكان علينا أن نهرع إلى الحمام حيث يكون الماء الساخن بانتظارنا، نخلع ملابسنا لنتوضأ، ثم نهرع إلى مائدة الطعام، النظيفة والأنيقة، والماء لا يزال ينقط من شعرنا. كم كانت مشاعرنا سامية بعد تناولنا طعام سحورنا ونحن ننتظر " ضرب المدفع"، الذي يبدأ معه موعد الصيام. وكنا في بعض الأحيان نذهب إلى السرير بعد أن نصلي صلاة الفجر. ونهاراً بعد صلاة العصر، تقوم الحاجة خانم باصطحاب الفتيات إلى الجامع للاستماع إلى الخطبة.

ولو قلت لها : يا" نينة الحجة" : لتبقَ مطلوب في المنزل، فما الذي سأفعله هنا وحدي؟" كانت تجيبني :

" بعد أن تصلي صلاة السنة، اقرأ سورة من القرآن الكريم، ولن يصيبك الضجر، يا طفلي العزيز ."

وكان الزوار من الرجال، غيري أنا، من الأقارب، والأخوة من الرضاعة، والأبناء المتبنين، إلخ . لم تكن مطلوب تُظهر نفسها أمام الذكور باستثنائي أنا . كانت تتجنب الأهل المقربين جداً، حتى أخيها نفسه .

كنا نجلس، ذات يوم، بعد صلاة الظهر، وكانت مطلوب تكوي الملابس بينما كانت الفتاتان، قدرية وفردوس، مشغولتين في تسوية غطاء السرير . طرق أحدهم الباب بسرعة . هرعت مطلوب إلى المشربية . وما لبثت أن عادت فجأة وهي تقول :

" يا نينة الحجة .... إنه صبري ..."

" أهو صبري؟"

" أجل، أقسم بالله أنه هو ..."

سألتها :" ومن هو صبري؟"

" إنه ابن عم مطلوب،" قالت لي الحاجة خانم.

ثم استدارت إلى مطلوب التي كانت تنظر إليها بغباء:

" هيا، اذهبي وافتحي الباب."

قلت مستفسراً: " وأنا.... هل سأبقى هنا؟"

أجابتني الحاجة خانم وهي تبتسم: " وكيف هذا؟"

" صبري متعصب. ولو رآك هنا، فلن يترك أحد فينا حياً!"

" إذاً ما نفعل؟"

" هيا، اختبئ في خزانة الملابس."

" وماذا لو بدأ التفتيش في خزانة الملابس؟"

" لن يفعل هذا."

" لنفترض أن الشك اعتراه وأصر على أن يفتش الغرفة؟"

" إنه يصدقني. لو قلت لك هذا، يا ولدي. هيا، اذهب بسرعة. لا تسعل أو تصدر أية ضجة!"

نهضت من مجلسي. وأفرغت الفتيات الأخريات خزانة الملابس من محتوياتها من البطانيات والملابس. دخلت فيها. كانت الظلمة

حالكة فيها . وحبست أنفاسي . ومثل بيلكيا الذي وقع في البئر في حكاية شاهميران، لم أستطع أن أرى شيئاً باستثناء شعاع من الضوء تسرب من فتحة صغيرة في عقدة من مصراع باب الخزانة . وبعد مرور دقيقة، دخل صبري الغرفة . وقمت على الفور بالتعديل من وضعيتي ووضعت عيني على الثقب الموجود في العقدة . كان شاباً، قوي البنية، ضخماً، شارباه سميكان، ويرتدي طربوشاً أسود . بعد أن استفسر عن صحة الجميع، قال :

" يا حاجّة، سمعت أن مطلوب تخرج مع أحدهم . وجئت اليوم لأتخلص من هذا الشخص ."

لم تبد الحاجة خانم أي علامة من علامات الخوف أو القلق .

" لا بد أنك كنت تحلم . ربما كان حلماً جميلاً كالبشرى ؛ في الأسبوع الماضي، كان ابن خالتها هنا . وعلى الرغم أنه أخوها من الرضاعة، إلا أنني لم أدعه يراها . ربما لا تعرف أي نوع من النساء أنــا" .

" بل أعرف، ولكن ...."

" ولكن ماذا؟"

" سمعت أن من تحبه موجود في هذا المنزل بل إنّه موجود هنا في هذه اللحظة ."

" يا إلهي، لقد جننت . من أخبرك بهذا؟"

" مهما يكن . . .

" هذا محض افتراء وكذب ؛ ها أنت ذا والمنزل . هيا قم وفتشه ."

تردد صبري قليلاً . استطعت أن أسمع صوت اصطكاك أسنانه ببعضها . كان يجلس قرب وسادة طويلة عليها غطاء أحمر اللون مصنوع من قماش المهاجرين . رأيت نصل السكين الكبيرة وهي تتدلى من تحت سترته ذات النسيج الأصفر اللون . أصابتني قشعريرة من الخوف؟ ؛ لم أكن أحمل حتى ولو دبوساً . كانت كل أسلحتي موجودة تحت وسادة مطلوب .

كسرت الحاجة خانم الجليد قائلة : "لا، لا يا صبري . لا أصدق مثل هذه الشكوك،" قالت ورأسها يرتجف . شرفي يحميني . لقد غضبت عليك . لن أنظر بعد الآن إلى وجهك . لقد نهضت لتوي من سجادة الصلاة . وما زلت على وضوئي، سأحلف أمامك يميناً . أن يصيب العمى الكاذبين . بمشيئة الله، سيعانون من شقاء كبير !"

ثم سألت مطلوب التي كانت تقف على قدميها بيدين ملتفتين :

" هل توضأت يا بنيتي؟"

" أجل، يا نينة خانم ."

" إذاً أحضري لي القرآن من ذلك الحائط ."

سارت مطلوب . حملت القرآن الذي كنت أراه معلقاً في الكوة التي تشبه المحراب، ومغلفاً بغطاء أخضر، حريري . قبلته، وقربته من رأسها، ثم حملته على مستوى صدرها بكل تبجيل، وأعطته للحاجة خانم . أخذته الأخيرة، وقبلته، وجعلته على مستوى رأسها، ثم جعلته على راحة يدها اليسرى . ووضعت يمينها على القرآن، ثم قالت :

" أقسم بالله، وأقسم بالله مرة أخرى، وليلعنني القرآن الكريم، إذا رأى أحد غيرك وجه مطلوب ."

" والان؟ هل تصدقني الآن؟"

" أجل ."

" والآن، لا يغوينك المخادعون ولا تبدأ بالتنمر عليَّ مرةً أخرى، يا صبري" .

" اغفري لي أرجوك، يا نينة خانم ...."

"كلا، أنا لا أستطيع أن أتحمل مثل هذا السلوك الشائن ."

قبلت القرآن الكريم مرة أخرى، وجعلته على مستوى رأسها، وأعادته إلى مطلوب . بعدما قامت بعملية التقبيل المتبعة، أخذت مطلوب الكتاب ووضعته في حقيبته الخضراء وعلقته في بسمار على الجدار .

أحسست، وأنا داخل الخزانة، أن صاعقة أصابتني . راح قلبي ينبض بسرعة وشعرت بخدر في جسدي من منتصف ظهري وما دون . ولأني كنت شديد التدين في تلك الأيام، اعتقدت أني سأموت . بدا لي كأني واقع تحت قبضة هذا القسم الزائف . في تلك الأيام كان القسم يعدّ أمراً عظيم الشأن . لم يكن بإمكانك أن تشتري شاهد زور حتى ولو دفعت له آلاف الليرات . في تلك الأيام الخوالي الطيبة، كان القسم يمسك بك في الزمان والمكان، وقد يقتلك دون أن يتيح لك الفرصة لتتحرك . لم يشبه مرض الرشح الإسباني، ولا فقر الدم . بعد أن اقتنع من قسم الحاجة خانم، نهض صبري، وقبل يدها، ونزل الدرج . وما إن فتح باب

الشارع وأغلقه، حتى خرجت مسرعاً من خزانة الملابس. وعندما رأت الحاجة هانم حالتي، فتحت عينيها:

" لا بد أنك ارتعبت رعباَ شديداً يا ولدي؟"

" كلا........"

" إذاً ما خطبك؟ وجهك شاحب."

" أنا تحت قبضة القسم!" قلت لها.

" أي قسم؟"

" القسم الزائف الذي أقسمته!"

" أتعني، قسمي أنا؟" وضحكت.

" أجل، قسمك. وأنت بكامل وضوئك، وضعت يدك على القرآن الكريم. وأقسمت أمام ذلك الرجل، أنه لا يوجد أحد سواه رأى وجه مطلوب. ألا تعلمين أني أنام معها في نفس السرير كل مساء؟"

" اخرس. لا أريد سماع مثل هذه الكلمات النابية، والشائنة منك. تعال واجلس هنا. إنها أختك بالتبني....." قالت هذا، ثم شدتني من يدي. وعندما دخلت الغرفة مطلوب، خاطبتها قائلة:

" تعالي أيتها الفتاة، وأحضري ذلك القرآن ودعونا نأكل ."

" حسنٌ، حسنٌ، يا والدتي العزيزة ."

لم أفهم ما كان يحدث أبداً . لقد ارتبكت تماماً . هرعت مطلوب إلى الكوة" التي تشبه المحراب"، وأحضرت الكتاب المغلف بحقيبة خضراء، إلى الحاجة خانم . لكنها في هذه المرة لم تضعه على مستوى صدرها . بل وضعته على الفراش، بيني وبين الحاجة خانم . فتحت الحقيبة براحتي يديها . كان داخل الحقيبة حقيبة أخرى ذات لون بني . فتحتها أيضاً . وفجأة فتحت غطاء الصندوق الأحمر الذي أخرجته من الحقيبة . كان مملوءاً بالتين الأصفر، المجفف ذي النوعية الفاخرة . لم أقل شيئاً، عدا عن أني لوحت برأسي . استمتعنا كلنا بأكل التين . وقالت الحاجة خانم :

"هل فهمت الآن يا بني، أن القسم الذي أقسمته لن يعاقب عليه أحد؟" وربتت على خدي .

" أجل، لقد فهمت ."

استدارت إلى مطلوب قائلةً :"

هيا، يا بنيتي . خذي أخاك الأكبر إلى غرفة نومك . هدئي من روعه ؛ ربما أصابه شيءٌ من الرعب من ذاك الرجل الغبي المسمى صبري ...." .

وا أسفاه ؛ لم يعد استانبول تتباهى بأن لديها فتيات رقيقات، ونظيفات، وبريئات، وجميلات مثل مطلوبة، التي لا تضع أحمر الشفاه ولا تتبرج متصنعة، ولا يوجد أي متنمرون مثل صبري ممن يحملون السكاكين ليقتلوا بها أصدقائهم والذين يؤخذون بسهولة بالقسم . بالنسبة إلي، لا أعرف لماذا لا أجد مذاقاً قديماً مشابهاً في التين المجفف . آه أجل، يا لها من أيام، منذ خمس أو عشرين عاماً .... كم كانت الحياة جميلة ؛

* * *

رشاد نوري غونتيكين

يُعدّ رشاد نوري غونتيكين واحداً من أعظم الأدباء في تاريخ الأدب التركي الحديث. ولد في استانبول عام ١٨٨٩. بعدما تخرج من كلية الحقوق في جامعة استانبول، عمل مدرسَ أدب سنواتٍ طويلة في العديد من المدارس الثانوية. كما عمل أيضاً ممثلاً لتركيا لدى اليونسكو وملحقاً ثقافياً في السفارة التركية في باريس. وبعد تقاعده، توفي بعد إصابته بمرض السرطان عام ١٩٥٦.

ألف غونتيكين عدداً كبيراً من القصص القصيرة الرائعة، والعديد من الروايات الشعبية والمسرحيات. وهو رائد في استخدام اللغة البسيطة، البعيدة عن الزخرف والتكلف، وفي التعبير أيضاً عن المشاكل الشخصية، والاجتماعية، والمشاعر والمعتقدات، وتجارب شعب الأناضول اليومية. وبلغت شهرته

ككاتب ذروتها مع صدور روايته الشهيرة «Calikusu». وتمتلئ صفحات الصحف والمجلات الهامة بالمساهمات الأدبية لغونتيكين، وترجماته، ومقالاته حول العديد من المواضيع ذات الهم الوطني. وتعتمد معظم كتاباته على ملاحظاته الدقيقة وفكره المرهف ، ونظرته المتفائلة إلى الحياة. وكان يؤمن إيماناً كاملاً بالمستقبل المشرق لبلده وشعبها الشجاع. وما يُشعر بالرضا هو نجاحه الكامل في نقل تفاؤله هذا إلى الأجيال الشابة.

البحث عن قديسين

رشاد نوري غونتيكين

(دار البلدية المنقسمة محتشدة بنخبة من أهل المدينة، رجال الدين والموظفون الحكوميون رفيعو المستوى. المفوض جالس على كرسيه. أصمت الجمهور عندما قرع الجرس وقال):

" أيها السادة، لنبدأ العمل. كلكم تعلمون الهدف من هذا الاجتماع. إذاً، دون أن أزعجكم بخطبة تمهيدية، سأدخل في الموضوع مباشرة. تذكرون أن المرحوم الحاج بهاء الدين أفندي الذي كان أحد التجار الأغنياء وكرامة هذا البلد والذي التحق إلى بارئه الأعلى منذ أربعة أشهر. وتذكرون أيضاً أن المرحوم الحاج أفندي قد ترك وراءه ممتلكات تقدر قيمتها بأربعة آلاف ليرة، وخصص جزءاً منها لبعض الأعمال النبيلة، وهكذا حث مرة أخرى على حبه الكبير للفضيلة. وبهذا الخصوص، ترك فقرة خاصة في وصيته التي سأقرؤها الآن عليكم.

(تناول ظرفاً من كومة أوراق كانت أمامه، فتحه، وعدل من وضعية نظارته، وطفق يقرأ بصوت عال).

"خمسمائة ليرة تترك بعد توزيع ممتلكاتي بين ورثتي بالطريقة المذكورة سابقاً، على أن تنفق كما هو موجز أدناه.

" أولاً، يجب أن يتم شراء ستائر مزينة بأناقة بقيمة خمسة عشر ليرة لكل أبواب جامع غازي شلبي ويحاك اسمي بأفضل ما يمكن من خيوط الحرير في منتصف كل ستارة.

"ثانياً، يجب شراء سبعة أكواب نحاسية لماء سبيل حسان، على أن يكتب اسمي على كل كوب من هذه الأكواب.

" ثالثاً، إذا ما كتب اسمي فوراً تحت اسم مؤسس سبيل حسان باشا، فإن مبلغاً و...

" أيها السادة : بما أن هذا الجزء من الوصية طويل جداً ـ وبما أنه لا يعنينا مباشرة، أتجاوزه إلى الجزء المتعلق بتوزيع الإرث لأن الحضور المميزين هنا قد أزعجهم جمعنا هنا."

(انتقل إلى الفقرات المتعلقة بذلك).

" من الواضح وباهتمام كبير أن عدداً من الأشخاص أصحاب الفضيلة والصادقين في العالم يتناقصون يوماً بعد يوم . وأتمنى تصحيح هذا الوضع قدر الإمكان، عبر تشجيع الفضيلة والصدق . ولهذه الغاية، قمت بتخصيص المبلغ المتبقي والبالغ مئتي ليرة إلى أكثر ألأشخاص فضيلة وصدقاً في هذه البلدة . ولن يستحق هذه الجائزة إلا الشخص الذي يشهد له الناس بالفضيلة، والتقوى، والصدق . وسيبقى القرار الأخير المتعلق بهذا الأمر بيد لجنة أصحاب المقامات الرفيعة . وعلى المرشح للجائزة أن يقسم على تنفيذ الشروط التالية :

أ) يجب ألا يضيع أي فرصة للإشارة إلى الجائزة وهو يؤثر في الناس في أن الفضيلة والصدق يؤديان إلى البركة في هذا العالم والخلاص في عالم الآخرة .

ب) عليه أن يقرأ سورة ياسين كلَّ خميس، ويحتفل بعيد المولد النبوي الشريف في كل عام .

ج) عليه زيارة قبري في كل أسبوع مرة ويزيل الأعشاب عن . .

(توقف عن القراءة، ووضع الوصية على الطاولة وخاطب الجمهور قائلاً) :

" أيها السادة ؛ لا أعتقد أنه يجب قراءة كل هذه الشروط البالغة واحداً وسبعين شرطاً . حيث تكمن مهمتنا اليوم في تقرير من هو الشخص الأكثر فضيلة، وتقوى، وصدقاً في هذه البلدة على أساس الشهادة العامة . لقد سهلت مهمتنا اللجنة الموقرة المؤلفة من رئيس البلدية وقاضي المقاطعة، الذي أعد لائحة بأسماء المرشحين لهذه الغاية . ويؤسفني القول إن هذه اللائحة غير مشجعة جداً . حيث وصلت تحقيقات اللجان السابقة في كل حي إلى تقرير الأسماء السابقة لكل المرشحين . وهذا ما كشف، لكن لا يوجد سوى خمسة أشخاص فقط في البلدة بأكملها ممن يحققون المطالب الموضوعة السابقة . وبمساعدة المجلس البلدي ومساعد المفوض، حصلنا على ملصقات ألصقناها في الأحياء المعنية، نخاطب بها الناس باسم الله، أن يخبرونا عن كل ما يعرفونه عن المرشحين ."

بعض الأصوات : " هذا عين الصواب ."

الرئيس :" المرشح ألأول هو حافظ رفول أفندي، الموظف في بلديتنا . يعرفه الجميع جيداً ويكنون له الاحترام . ادّعى أنه لم ير

أحد منه عيباً قط، خلال السنوات الثلاثين التي أمضاها في وظيفته الجديرة بالتقدير في البلدية.

أصوات من الجمهور: "موافقون."

الرئيس: " وأضيف هنا، أن هذا الرجل الفقير أتاني منذ ساعة مضت، بطلب غريب. قال لي: " " يا سيدي، أنا رجل فقير ولدي عائلة كبيرة أطعمها. مع أن الجائزة النقدية كبيرة وستساعدني، إلا أني أريد أن يشطب اسمي بسبب خوف ينتابني لا أدري كنهه.

قاضي المنطقة: "علينا أن نتجاهل هذا الخوف غير المنطقي ولنتابع واجبنا حيال هذا الرجل الفاضل."

الطبيب (وهو رجل بسيط يبلغ من العمر حوالي خمسين عاماً، ذي شارب أشيب، ووجهه متورد وبنية ضخمة): " أيها الرئيس! إذا ما سمحت لي، أعتقد أن لهذا الخوف الداخلي عند هذا الرجل الفقير ما يبرره. علينا احترام رغبته في استثنائه من هذه الجائزة. وإذا ما سألتني، فإني أشعر أن هذه العمل بكامله لجائزة الفضيلة يمكن رفضه من الناحية الأخلاقية."

أصوات عديدة: " الله الله! فليسكت هذا المتحذلق..... فهو لا يتحدث إلا هذراً! .... إنه مخطئ تماماً......"

الطبيب : " أيها الرئيس ، أريد حقي في الكلام .... أيها السادة ، لا داع للصراخ . كلنا يعلم أي رجل هو الحاج بهاء الدين . علينا ألا نخفي هذا . ليغفر الله خطاياه ! "

أستاذ المدرسة زاهد أفندي (بصوت أجش لرجل لم يصبه مرض الملاريا طوال حياته) : " اذكروا محاسن موتاكم . "

الطبيب : " حسنٌ، ألم أدعو الله حتى يغفر خطاياه؟ حتى بعد الموت، لم يكن هذا الرجل الحاج قادراً على أن يقاوم غواية ارتكاب الفعل الشيطاني ضد أهل بلده من خلال هذه الوصية الساخرة .... أيها السادة، أرجوكم لا تصرخوا .... سأقول هذا وأنا أعرض نفسي لخطر الرجم حتى الموت .... ألا تدركون مدى الرعب الكامن وراء ما يدعى بالشهادة العامة؟ ألا تدركون معنى أن تتركوا مصير رجل لا حول له ولا قوة تحت رحمة البلدة كلها - بلدة يقطنها الآلاف، رأس كل رجل فيها مسكونٌ بعالم كامل خاص به هو؟ ألا تعلمون أن الجريمة الشنعاء تجيز لآلاف من العيون المحدقة أن تنفذ إلى خصوصية الإنسان الفاني المتواضع كي تفضح أكثر الأسرار حميمة من حياته الخاصة العائلية؟ .... أيها السادة، إذا

كنتم فعلاً تقدرون الفضيلة والتقوى، دعوا هذا الرجل المسكين وشأنه فقد ينمو كزهرة برية ويستمتع بخصوصية حياته العائلية في زاوية مظلمة من المدينة . وأي شخص تقترحونه نموذجاً للفضيلة والعفة مقدر له بالتأكيد أن يستبدّ به بمقدار ما من الحقد، والظلم والعداوة . وآثار الأخطاء الصغيرة، والأفعال الأنانية، واللامبالاة التي لا يقيم أحدٌ لها وزناً في مجتمعنا، ستبرز بوضوح كأخاديد لخطايا فاحشة في وجه هذا الرجل التعس، في اللحظة التي تركز فيها وهج آلاف من الأضواء الكاشفة . ولهذا، أرجوكم أن تتخلوا عن فكرة جائزة الفضيلة ."

الأستاذ : " لا الزمان ولا المكان مناسبين، ولهذا أستطيع أن أثبت بعقلانية، كيف أن نقاشك غير منطقي ومبالغ به ."

الرئيس :" سيستمر النقاش . لقد قام السكرتير بجمع كل الرسائل المستلمة حول هذا الموضوع في ملف . وبعد إذنكم، سأطلب منه أن يقرأ عليكم فحوى هذه الرسائل ."

السكرتير : " الرسالة الأولى من أحد جيران حافظ رؤوف أفندي . يؤكد كاتب الرسالة بأنّه سيد . ويقول إنه نشب شجار بين

شخصين من الحي نفسه منذ زمن مضى، كان فيه حافظ أفندي شاهداً، كما أكد العديد، ولكن عندما سُئل، تجنب الشهادة، وقال إنه لا يعرف شيئاً عن الشجار ."

الأستاذ :" هذه لامبالاة لا تغتفر . وهذا يعني أن الرجل الذي نرى فيه مثالاً للفضيلة والورع، لا يتردد في قول الكذب طوال الوقت . أطلب تسجيل تفسيري هذا ."

السكرتير :" والرسالة الثانية هي أيضاً من أحد الجيران . وتقول هذه الرسالة إن حافظ أفندي كتب معروضاً باسم امرأة لاجئة العام الماضي، يذكر فيها أنها كانت مريضة، وهو يعرف تمام المعرفة أنها لم تكن مريضة ."

الطبيب :" وكيف يلام حافظ أفندي على هذا؟ طلبت منه المرأة أن يكتب لها حول مرضها فأجاب طلبها ."

الأستاذ :" آه لا، لا تقل هذا، أيها الطبيب . فالمساعدة في ارتكاب الجريمة تعدّ من الخطايا الكبيرة كارتكاب الخطيئة . سجلوا هذا التفسير ."

السكرتير :" والرسالة الثالثة هي من لمباردار المنطقة . وبحسب هذه الرسالة، دارت إشاعة عن أرملة واحدٍ من أهل الحي عن أنها آوت في منزلها غريباً لليلة واحدة، منذ عامين . وكتب أهل الحي طلباً إلى السلطات لإخراجها من المنطقة لكن حافظ أفندي رفض التوقيع على هذه العريضة ."

أصوات عديدة : " هذا سيء جيداً . لم نتوقع هذا أبداً من ذلك الوغـ......"

الطبيب :" وماذا في هذا؟ أمر حسنٌ أنه رفض التوقيع . وهل هو ملزم عليه؟"

الأستاذ :" وأي نقيصة هي أسوأ من هذا الأمر؟ أن تقف إلى جانب عا... لا يعني أنك أداة في العهر المنتشر؟ يا عزيزي، أنت تعلم تماماً ما يلقب به أولئك الذين يعملون وسطاء، فهم يساعدون في العلاقات الجنسية غير الشرعية ."

الطبيب :" استمروا إذاً، ودعوا هذا اللقب يضاف إلى حسابه ."

الأستاذ :" لا، بل سنوفر له تلك الكرامة، فهي مختلفة عن فضائله الأخرى . وقد لا نسجل سوى أنه حرض على ارتكاب عمل شيطاني ."

أصوات : " هذا حق . نحنُ موافقون" .

السكرتير : " والرسالة الرابعة هي من مستأجر قديم عند حافظ أفتدي . وقد ادعى بأنَّ هؤلاء السادة أكدوا قيمة منخفضة لهذا المنزل حتى يتجنبوا ضريبة الممتلكات . "

الطبيب : " أيها السادة . . . أصغوا إلي أرجوكم . كلنا يعلم كمية الضرائب التي كان يدفعها المتوفى نفسه على ممتلكاته غير المحدودة . . . . "

الأستاذ : " لا تزر وازرة وزر أخرى، أيها الطبيب . لتسجل هذه الواقعة أيضاً" .

مفتش الضرائب : "أيها الرئيس، اسمح لي أن أحتفظ بهذه الرسالة . سأتحرى هذه القضية، فإذا ما كانت صحيحة، فسيتم استخدام مال المكافأة لاسترداد الضريبة . "

السكرتير : " في الرسالة الخامسة، هناك بيتان من الشعر في مكان الإمضاء، هما : " قل لمن يقيم العدالة، لا تهتم بالتواقيع . " وتحتوي الرسالة بوحاً وكشفاً مرعباً للحياة الخاصة لحافظ أفندي . "

الطبيب :" بالله عليكم، تجنبوا على الأقل قراءة هذه الرسالة . ليس لدينا الحق حتى نحشر أنوفنا في حياة المواطن الخاصة" .

الأستاذ :" الله الله ! وكيف لك أن تقرر فضيلة امرئ وتقواه دون أن تتلصص على حياته الخاصة؟ فليتابع السكرتير" !

السكرتير :" سأقرأ فقط بضع جمل من هذه الرسالة . لقد تزوج حافظ أفندي من زوجته الأولى بعد علاقة حب دامت ستة أشهر . ثمّ تزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته الأولى . وكانت الزوجة الثانية زوجة محضر تشريح . وكانت تزور البلدية لبعض الأمور . وبهذا تعرف إليها حافظ أفندي . وتطورت هذه المعرفة إلى علاقة حب . وبعدها مباشرة توفي زوج السيدة السابق واتخذها حافظ أفندي زوجة له ."

الأستاذ :" لا ملجأ إلا أنت، يا إلهي ! أي درجة من الانحلال تلك التي عاشها طوال حياته ...؟ الرجل الذي كنا نعتبره مثالاً للفضيلة .... يرتكب خطيئة، ويعاشر امرأة متزوجة، وفي مكتب حكومي أيضاً، وهو يؤدي واجبه الرسمي ! لنرَ ماذا هناك أيضاً، أيها السكرتير ."

السكرتير: " إحدى بنات عمة حافظ أفندي أمسكوا بها مع شرطي في منزلها قبلَ سبع سنوات خلت. وابنتها الكبرى، التي كانت تحب الجابي، هربت معه. وابنها الأصغر حكم عليه بالسجن شهرين لأنه ضرب جاره وحطم له اثنين من أسنانه."

الطبيب: " هل ستدخل كل هذه الوقائع في حساب هذا الرجل المسكين؟ ما علاقته بخطايا عمته أو أبنائها وبناتها؟"

الأستاذ: " بحق الله، أيها الطبيب، أرجوك، حكم عقلك! لو كان حافظ أفندي رجلاً فاضلاً فعلاً، لربّى هؤلاء الأطفال على الأخلاق الفاضلة".

السكرتير: " ويقول كاتب الرسالة السادسة إنه رأى حافظ أفندي يعاقر الخمر في حفل زفاف، منذ ثمانٍ أو عشر سنوات خلت."

صوت: " اللعنة على فضيلته!"

الرئيس: " أيها السادة، أطلب منكم ألا تقاطعوا الكلام دون داع... إذاً هذا يعني أن حافظ أفندي لا يمانع أن يعاقر الخمر الآن وغداً."

السكرتير :" والرسالة السابعة من إمام حي حافظ أفندي . ويقول هذا الأخير إنّ حافظ أفندي ادعى المرض ولم يصم أسبوعاً كاملاً طوال شهر رمضان الفائت ."

الأستاذ :"عدّ هذا تهرباً متعمداً من الفروض الدينية ."

السكرتير :" والرسالة الثامنة هي من رشيد أفندي الذي كان موظفاً رئيساً في الانتخابات العامة الماضية . يقول إن حافظ أفندي قد رفض استخدام ورقة اقتراعه عند الانتخابات، وهو يؤكد أن الانتخابات لم تكن حرة ."

الرئيس :" سجل : إهمال في تأدية واجباته في التزاماته السياسية والمدنية ."

سكرتير النادي :" كما يجب أن تضيف " معارضةُ شخصيةٍ مقدّسةٍ في حكومة تلك الأيام ."

مدير التعليم :" لن أكون مخطئاً لو أضفت " ميول رجعية .""

السكرتير :" والرسالة التاسعة من مفتش الشرطة تقول : إن شرطياً كان عليه أن يستخدم القوة الأسبوع الماضي ليأخذ عاهرة

ثملة إلى قسم الشرطة . وعارض حافظ أفندي الأمرَ، قائلاً إن المرأة خضعت لمعاملة مزرية ."

الرئيس : " عُدَّ هذا الأمر تدخلاً في شؤون وواجبات الشرطة الرسمية ."

السكرتير : "والرسالة العاشرة من صاحب حانوت . وفيها أن حافظ أفندي كتب في تقرير، أنّه يجب أن يسجن أسبوعاً كاملاً في دعوة قضائية، لكن المحافظ لم يزعج نفسه بحضور الجلسة . ولهذا لم تُوقّع الأوراق ."

المحافظ : " يا لهذا الكاذب الوغد ! يا لتصرفه الشائن بحق رؤسائه وانتقاد رؤسائه؟ دوّن هذا، يا سيدي ."

السكرتير : " وتتحدث الرسالة الحادية عشر حول سلوك حافظ أفندي المهمل . منذ زمن مضى، اشترت البلدية شيئاً من الكلس بمناقصة . وفشل حافظ أفندي في تقديم إحدى المناقصات أمام اللجنة المعنية، وبناء عليه سبب للبلدية خسارة مقدارها مئة ليرة ."

المحافظ : " لم ألحظ حتى الآن تقاعساً من حافظ أفندي، لكن أخشى ما أخشاه أني لن أستطيع أن أرفع يدي عن هذه الأمور بعد

الآن. علي أن أصرفه من الخدمة. دون النظر إلى طريقة استخدامه أموال الجائزة ليفتتح بها متجراً له أم قام ببعض الأمور الأخرى، هذا ليس من شأني."

سكرتير النادي: " يمكن له أن يفعل ما يحلو له، لكن ليس في هذه البلدة بالتأكيد. لن أوافق على أن يعيش هذا الرجل هنا، طالما أصبحت مشاربه السياسية موضع شك."

الطبيب (صارخاً): "أيها السادة، أناشدكم بإيمانكم، وبما تؤمنون، وبشرفكم، أن تصرفوا هذا الرجل، وأن ترموه خارج هذه البلدة وأن تفعلوا معه ما يحلو لكم، لأنه لم يعد لهذا الرجل البائس وجهٌ يستطيع أن يريهِ للناس. لكني أتوسل إليكم باسم الله أن تكفوا عن قراءة هذه الرسائل الآن."

الرئيس: "ولكن ما الضرر في استمرارنا بقراءتها؟".

الطبيب: " ما الضرر، أقلت هذا؟ الضرر سيكون في أن هذا الرجل، الذي كنا نعدّه مثالاً للفضيلة منذ ساعة مضت، سيشنق صباح يوم غد إذا ما استمرينا في قراءة هذه الرسائل".

الأستاذ : "مع أن وجهات نظرك غير منطقية أبداً، إلا أني أوافق على إيقاف هذا النقاش . فمهمتنا لا تكمن في محاكمة هذا الرجل بل لنقرر فيما إذا كان فاضلاً، وورعاً وصادقاً أم لا . وحافظ أفندي الذي انكشف وجهه الحقيقي اليوم، كان رجلاً يرتدي عباءة الحاج ولكنه يحمل خنجراً تحت ذراعه، نلتمس منك أيها الرئيس أن يشطب اسم هذا الرجل من لائحة المرشحين للجائزة . ويمكن أن نستمر بفحص المرشحين في الاجتماعات اللاحقة" .

الطبيب (صارخاً) : " أيها الأستاذ المحترم ! يبدو أنك قررت أن تسوق كل رجل فاضل إلى المشنقة واحداً إثر الآخر حتى لا يبقى في هذه المدينة غيرك ..." .

* * *

قليلٌ من الماء!

رشاد نوري غونتيكين

" الطقس جميل اليوم يا أبي . هل أستطيع أن أخرج اليوم؟" .

" حسنٌ، يا نيفين . قولي لأحدهم أن يجهز السيارة" .

" كلا، يا أبي . أريد الخروج سيراً على الأقدام . أتذكر العام الماضي في مثل هذا اليوم، عندما ذهبنا إلى فيلا الشاطئ ـ ذلك الممر الصغير في الجانب الآخر من الأيكة؟ هيا بنا نذهب إلى ذلك الدرب نفسه ."

" حسنُ، ولكن ..."

" لكنك قلق من أن أتعب، أليس كذلك، يا أبي العزيز؟ هل تعتقد أنه قُدّر عليَّ أن أتعفن في المنزل طوال حياتي بسبب هذا المرض التافه الذي أصابني ؟ صدقني، أستطيع أن أمشي كما

اعتدت، قبل أن أقع في هذا المرض . أتمنى أن تكون في المنزل باكراً اليوم، لتراني وأنا أعزف على البيانو، وأسقي الورود، وأنا أغسل كلبنا أيضاً . أنا أتعافى بسرعة، يا أبي . لن يمضي شهر حتى تراني أقوى، وأكثر أملاً، وأكثر الفتيات إزعاجاً بطريقة لم تعهدني بها من قبل" .

كانت شمس الظهير تعبث بخصلات شعر نيفين الذهبي، القصير والمتجعد المتلألئ . وتعطي مسحة وردية لوجهها الواهن، والشفاف .

" في الربيع القادم سنذهب إلى أماكن بعيدة للنزهة، أليس كذلك يا أبي؟" .

" بالتأكيد يا نيفين" .

احتضن حامد بيك ابنته من خصرها الهزيل لأول مرة منذ أشهر، استجمع قواه ونظر إلى عينيها . كان يعرف أن نيفين ما هي إلاّ ضيفة لن تبقى في هذا العالم أكثر من فصلين . وفي كل مرة كان ينظر فيها إلى عينيها الشاحبتين اللتين كانتا تبدوان بنفسجيتين، ينتابه تفكير مخيف يبدأ بإزعاجه :" نيفين ستموت ... لقد كرست

حياتي كلها من أجل حبها ولكن اليوم الذي ستغلق فيه عينيها الجميلتين، النضرتين إلى الأبد ليس ببعيد ."

كان حميد بيك طبيباً . لكنه في الصميم كان سياسياً أكثر منه طبيباً . أمضى السنوات الأولى من شبابه مسجوناً ومنفياً . لكنه لم يكن من أولئك الذي يستطيعون الثبات في هذه المهنة . . كان رجلاً مستقيماً ذا شخصية معصومة عن الخطأ، ومغرماً كثيراً بالقراءة والطب . ونتيجة لهذه الميزات، وصل إلى نتيجة مفادها أن حياته السياسية كانت عادية، وأن الصراعات السياسية التي كان يشارك فيها كانت في الواقع غير ضرورية، وأن كل الفضائح التي ينغمس فيها السياسيون كانت حقارةً . وفي هذه المرحلة الثانية من حياته، أصبح حميد بيك مدافعاً عن الحرية . ومن الآن وصاعداً سيدخل في جدال مع أصحابه السياسيين السابقين .

كان يسألهم : " ما الفائدة من تغيير الحكومة؟ قبل أي شيء آخر يجب أن تتغير روح الناس . لا تستطيع تحسين مجموعة من الناس أو أن تجعلهم سعداء لفترة طويلة وهم يستمرون في العيش تحت تأثير معتقدات خاطئة . كنت تواقا لأن أكون طبيباً رائعاً، طبيباً يستطيع

القيام بعمليات كبيرة للإنسانية جمعاء . أردت أن أقتلع وأرمي ما يدعونه بـ" القلب"، مصدر كل الرغبات والطموح، مصدر كل العواطف والأحزان، أردت أن أزيل ما يدعونه بالخيال منبت كل الالتهابات الميكروبية والنتانة . إنها مجرد عملية من شأنها أن تجعل الإنسان سعيداً فعلاً . تخيلوا فقط الثروة الجيدة للإنسان الذي ولد، وأمضى حياته كلها ثم مات تحت هذه الظروف الجديدة . سيولد الطفل كأنه في حالة من الظلام . ثم وببطء، سيبدأ المشعل المضيء في أفكاره بالاحتراق . وعلى ضوء ذلك المشعل، ستكون حياته شبيهة بأنوار العيد . ثم سيأتي يوم يغلق فيه عينيه عن عالم النور هذا، دون أن يعرف شيئاً أبداً عن الجشع أو الحزن، ودون أن يزعج نفسه أبداً حول أصل هذا العالم، أو أن يخاف من العالم التالي" .

وكانت نظريات الطبيب حميد الجافة، والقاسية والمادية تبث الخوف في قلوب من حوله .

ومع كل هذا، كان يتمتع بشخصية ساحرة لا يمكن تفسيرها . والسبب هو شخصيته المستقيمة وهذا الدفق الأبدي لحبه وعاطفته، الذي يتدفق من ذلك المصدر الخفي، قلبه، مع أنه لم يكن يسلم بضرورة ذلك العضو .

* * *

عندما توفيت زوجته، كان حميد بيك في الأربعين من عمره. وأصبحت نيفين دونَ أم وهي في عمر الثانية عشرة. وعندما تزوج مرة أخرى، استطاع تأسيس منزل جديد لكن رغم أنه لازال شاباً، إلا أن إحساساً داخلياً كان يعتريه من أن يتعب من العيش. وقرر، مع ذلك، تكريس ما تبقى من حياته لنيفين. أراد أن يجعلها تتابع نظرياته حول الحياة. كان تواقاً لأن يربيها كفتاة دون إيمان، مادية، وسعيدة تمتلك ضميراً صافياً.

كان أول شيء فعله بعد وفاة زوجته أن فصل نيفين عن مربيتها الشركسية التي كانت تروي لها الحكايات الخرافية، وعن المعلمة التي كانت تجبر التلميذات أن يغطين رؤوسهن بالحجاب الأخضر وأن يقرأن القرآن صباح كل يوم.

وكي يجعل نفسه تتلاشى في روح طفلته، كان حميد نفسه يتصرف كطفل ويلعب مع نيفين لساعات وساعات. ثم يأخذها في حضنه ويبدأ بزرع أفكاره ببطء في عقلها الصغير.

أصبحت نيفين اليوم في الثامنة عشرة من عمرها. تحب والدها إلى حدّ العبادة. لقد تربت كفتاة ذات عقل منفتح، عارف،

وبشخصية سليمة . وكان مظهرها ومحياها لا زالا كبقية الأطفال، لكن أفكارها وروحها تميزها عن بقية الأطفال الآخرين . كان حميد فخوراً بها ويشير دائماً إلى نيفين بـ" عملي الفني الجميل" . ولكن وا أسفاه، كان " عمله الفني الجميل" هذا يفتقر إلى السعادة والإلهام .

* * *

أصيبت نيفين بالمرض في نهاية الشتاء الماضي . أصابها مرض السل، على الرغم من كل العلاج والرعاية، صحتها كانت تتراجع يوماً بعد يوم . وصار عالم حميد يتداعى . لكن لا زال لديه واجب واحد يؤديه، ألا وهو أن يجعل طفلته المحبوبة سعيدة حتى يحين موعد موتها المحتوم . كان في بعض الأحيان يتخيل تلك الليلة المأساوية التي، سيعود فيها إلى منزله الفارغ بعد أن يواريها الثرى . يفكر في أنه من الممكن التخفيف عن نفسه من مرارة تلك الليلة إذا ما استطاع تحقيق كل الأمنيات الأخيرة لنيفين . لكن لم يكن لنيفين أمنيات، ولا ترغب في أي شيء في هذا العالم . وأمام عرض حميد عليها تلبية أيّ طلب لها كي يجعلها سعيدة، كانت تخفض عينيها وتقول " أنت تعرف أفضل مني يا أبي ."

* * *

كانا يتوجهان إلى شاطئ البحر وهما يسيران على الممر الضيق عبر أشجار كثيفة. عندما تركت نيفين حجابها يتدلى إلى كتفيها. كانت تسير أمام والدها. وجعلت شمس الظهيرة شعرها الأجعد يظهر بلون أكثر صفرة وعينيها أكثر نضارة وأكثر سعادة. وصلا إلى نبع ماء. كان محاطاً بكومة من الحصى تعلوها الطحالب. مرا قرب فتاتين صغيرتين فقيرتين، عمر إحداهما في حوالي الثانية عشرة وعمر الأخرى حوالي السابعة. قامت الفتاة الصغرى بتعبئة كأسٍ من الصفيح من النبع واقتربت تحمله بخوف إلى نيفين.

ابتسم حميد بيك. وأخرج نقوداً من جيبه وقدمها للفتاة الصغيرة، وقال: " خذي هذا، يا صغيرتي. فنحن لا نريد ماءً. " لم تقبل الفتاة النقود واستمرت في تقدمها نحو نيفين وهي تحمل كأس الماء بعناد لا يفسر.

سأل حميد بيك الفتاة الكبيرة: " لماذا تصمم أختك على شربنا من هذا الماء؟ "

وبابتسامة خجلةٍ، أجابت: " لقد توفيت والدتنا. وهي مدفونة هناك، في المقبرة. وقد قال مدرس الديانة أن الموتى يزدادون في

عطشهم مساءً . وإذا ما قام أولادهم الأحياء بإطفاء عطش الأحياء فإن عطش أمواتهم سيطفأ أيضاً . وفي اليوم الذي نقدم به الماء لعابري السبيل، تتراءى والدتنا في حلم أختي عائشة، وهي ترتدي ثوب زفاف أخضر . أليس هذا صحيحاً يا عائشة؟"

كانت الفتاة الصغيرة لا تزال تتعلق بتنورة نيفين، وهي تهز رأسها مبتسمة . وتابعت الفتاة الكبرى كلامها :

" واليوم، لم يمر أحد من هنا . وكنت أقول لعائشة إن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل . وراحت تبكي، وهي تسألني :" ماذا ستفعل أمنا العطشى هذه الليلة؟"

جلست نيفين القرفصاء، كأنها كانت تريد الاقتراب حتى تنظر إلى وجه الفتاة . رأى حميد بيك قبولها لكوز الماء، وكيف راحت تقربه إلى شفتيها، تقبله كأنه شيء مقدس . ومن فوره قام بإمساكها من ذراعها وصاح بها :

" ماذا تفعلين، يا نيفين؟ أليس هذا الماء الذي تريدين أن تشربي منه وسخاً ؟ هل تريدين أن تصابي بالمرض؟"

سمعت صراخه بصعوبه، وقالت مدافعة عن نفسها :" دعني وشأني، يا أبي . لا تدع أم عائشة تحترق من العطش كما تحترق أمي ."

" ما هذا الذي تقولينه يا نيفين؟ هل أسمع هذا الكلام من شفتيك . أنت التي كنت أعجب بها من أجل تحررها؟"

استمرت نيفين في صراخها . " أستطيع أن أقدم مساعدة في هذا، يا أبي . بما أن عائشة تؤمن بكل هذه الـ . . . ."

انهمرت الدموع على وجنتيها الشاحبتين وامتزجت بالمياه الموحلة في الكوز . سالت بعض من دموعها إلى زوايا شفتيها الرقيقتين وبللت عنقها وصدرها، الذي كان يرتفع وينخفض منسجماً مع نشيجها .

لم يعد حميد بيك يفكر في أن يأخذ الكوز من يديها . بدا الأمر بالنسبة إليه كأنّ ذلك الماء من نهر أحلامها، من نبع العزاء . كل حبه وعاطفته، وكل رعايته المؤلمة نحوها . إلا أنه فشل في جعل نيفين سعيدة بينما نجح كوز ماء متسخ في جعلها سعيدة . اعتقد أنها ستموت فتاة سعيدة وراضية بعد أن تشرب من ذلك الماء .

* * *

غسلت نيفين وجهها بملء يديها من ماء النبع ومع ذلك استمرت دموعها بالانهمار دون انقطاع. أمسك حميد ببطء يدها، وهو يخفي حزنه بعصبية وقال: "دعيني يا نيفين أشرب بعض الماء من راحتيك. حتى لا نترك أمواتنا عطاشاً".

أحس حميد بيك وهو يشرب الماء من تلك اليدين، اللتين كان يعرف أنهما ستصبحان في الأرض بعد بضعة أشهر، كأنه ولد من جديد في حياة جديدة. وراحت نيفين تنشج بصوت عال، وأغلقت ذراعيها حول عنق والدها، وبشفتيها المبللتين المرتجفتين قبلته.

* * *

" يا أبي، نستطيع في النهاية على الأقل أن نفتح قلبينا على بعضنا. سأشرح لك حالتي الداخلية. أنت تعلم تمام العلم كم أبكي بكاء مراً في كل يوم عندما يأتي المساء. أنا أعرف الآن لماذا لدموعي مذاق طيب، لا يُشبع. في كل يوم عندما يحترق شخص ما أو غصن شجرة صبار، أتذكر ذلك اليوم المُرّ كالسم الذي توفيت فيه والدتي. كم كان يوماً مشئوما: المتزوجون منذ زمان وحديثو العهد بالزواج، والشباب العنيدون والأطفال الرقيقون، كان الجميع يصرخون وهم يتعانقون. وأصبح المنزل بأكمله نحيباً خالصاً،

وروحاً منتحبة، والكثير من هذا، يا أبي، بحيث أني أحسست كأن الروح المغادرة تشاركنا حزننا. عندها آمنت أن البشرية جمعاء تربطها روابط دم مشتركة، أرواح المحبين، سيتم لم شملها في العالم التالي وتعيش معاً كما كانت تعيش في هذا العالم. حكايا مربيتي الخرافية وتعاليم معلماتنا كنت أراها أمام عيني، وأمام أمي الميتة، تتجول في جنان السماء، ترتدي ثوب العرس الأخضر كوالدة عائشة. واأسفاه، يا أبي، بينما كانت تستمر الفتيات الأخريات بغناء التراتيل مع معلماتنا، ورؤوسهن مغطاة بالحجب الخضراء، كنت أخلعها عنهم بسببك. لقد علمتني أن العيون التي تغلق في هذا العالم لا تفتح بعد ذلك: وأن كل من يحبون بعضهم حباً جماً في هذا العالم، وكل الذين يعانون من آلام الفراق عندما يأتي الموت، مقدرعليهم أن يتعفنوا إلى الأبد في قبورهم، ولن يبعثوا أبداً، ولن يلتقوا أبداً. صدّقت في البداية ما قلته لي، لكن بعد ذلك بدأت الشكوك تنهش عقلي.

" كنا عائدين، ذات ليلة من شامليجا. أريتني السماء، والنجوم، ودرب التبانة. قلت لي إن السماء ليست إلاّ فراغاً واسعاً، وأن النجوم التي تتلألأ في السماء ليست إلا مجرد وهم أمام أعيننا. وفتاة

صغيرة مثلي التي كانت تؤمن إيماناً ثابتاً أننا سنفتح أعيننا في العالم التالي في اللحظة التي سنغلقهما هنا، وأن شملنا سيلتئم مع كل من نحب والأقارب في الآخرة، تخيل فتاة كهذه يقال لها إن كل هؤلاء الذين يموتون سيمكثون في قبورهم المنفصلة عبر كل العصور التي ستأتي!

"لم أستطع لسنوات طويلة أن أروض نفسي على نظرية اليأس هذه. عانيت سنواتٍ طويلة من آلام الموت الذي ليس له غد، الموت الذي لا يعد بالأمل. مثل أمي ومثل كل الذين أحببتهم والذين فقدتهم، اعتقدت أني سأفقد أبي أيضاً، وإلى الأبد: وأننا لن ننظر في عيني بعضنا أبداً: وأن قلبينا لن يشتركا في حب الآخر.

" وأخيراً أصبحت فتاة من النوع الذي كنت تتوق أن أكونها. فتاة مستقيمة بضمير صاف، تعيش بمساعدة وحيدة من ذكائها. أصبحت ملحدة، وشكوكية. ولدي تفوق معقد على أي شخصٍ حولي. يا له من تفوق مأساوي.

"لم تتوقف عند هذا الحد، يا أبي. بل بدأت تزرع في داخلي الشكوك حول أشياء اعتدت سنواتٍ عليها: أشياء مثل الحب،

والإيمان، والولادة، والموت. لقد جعلت هذا العالم ضيقاً جداً حتى أعيش فيه، بينما لا يفهم العالم سوى بعضه بعضاً بينما هم لا يفهمون الحب، إذ يعدونه كافياً ليؤدّوا التزاماتهم الإنسانية تجاه بعضهم، ويتنقلون على بصيص ضوء المنطق. سأموت، يا أبي، ولن تستطيع أن تخفي عني هذه الحقائق. من سيكون عزاءك عندما ترسلني إلى قبري؟ ولكن لا تأسف على موتي، يا أبي. لماذا يشعر الجميع بالأسف على موت يأتي قبل الأوان على من حرم من السعادة التي تنبع من الحب والإيمان؟"

* * *

ماتت نيفين قبل أن تتفوه بتلك الكلمات لأبيها. سمع حميد بيك فقط هذه الشكوى من شفتين شاحبتين مرتجفتين من ابنته الميتة وهو يأوي إلى الفراش في كل ليلة.

وأصلح النبع المتهدم في ممر تلك الغابة المقفرة الطبيب الهرم. كان يذهب ويجلس هناك في كل مساء ويستعطف أطفال القرية أن يحولوا إلى النبع أي درويش يتجول في تلك الطريق، ويستجديهم أن يشربوا جرعة ماء.

* * *

رفيق حاليت كاراي

كاتب قدم أسلوباً جديداً في الأدب، واستفاد استفادة كبرى من استانبول التركية، ولد رفيق حاليت كاراي في استانبول عام ١٩٨٨. كان كاتب قصة قصيرة وروائياً. تلقى تعليمه المدرسي في استانبول، وقبل أن ينهي تعليمه في القانون، فضل أن يختار الصحافة العملية مهنة له. تنقل في عمله في العديد من الصحف. أدت به كتاباته المعارضة ومعارضته لحرب الاستقلال إلى النفي. نُفي أولاً في مدينته مدة خمس سنوات، ثم إلى خارج وطنه مدة ستة عشرة عاماً، وعاد إلى تركيا في عام ١٩٣٨ بعد عفو عام. أمضى السنوات الأخيرة من حياته عاملاً في الصحافة.

كان كاراي ماهراً في استخدام اللغة المحكية في كتاباته. وتعكس رواياته وقصصه القصيرة ملاحظاته الذكية وخبرته

الغنيـة في الحيـاة. وكانـت خبرتـه الطويلـة كـصحفي مـصدراً لكتاباتـه. ومهارتــه الرائعــة في رســم اللوحــة أكـسبته لقــب "الكاتب - الرسام".

تــضمّ أعمالــه عــدداً كــبيراً مــن الروايــات، والقــصص القــصيرة، والنــوادر، والمحاضــرات المــصورة، والمــسرحيات، والمذكرات، والمقالات التي عالجت العديد من الموضوعات.

توفي كاراي عام ١٩٦٥ عن عمـر ينـاهز الـسابعة والـسبعين عامـاً.

السلسلة

رفيق حاليت كاراي

عندما لا يكون لدي شيئاً أفعله خلال إقامتي بعيداً عن المنزل، تصبح النافذة التي تطل على الشارع في متناول يدي ككرسي مراقبة .

هل تدرك مدى العذاب الذي على المرء أن يتحمله عندما يجبر على العيش في المكان نفسه في بلد غريب فترةً طويلة جداً؟ بعد التجول في الأسواق والشوارع خلال الأيام الخمسة أو العشرة الأولى، يعتريك الملل من حاجتك إلى الوجوه المألوفة أو نقص الأماكن التي تريد أن تصادقها . في ذلك الوقت تذهب إلى غرفتك وتغلق على نفسك في الوحدة . ومثل دلو الجرار الذي يستمر في التدلي بين غصون أشجار الأناناس، يوم في الداخل ويوم في الخارج، رأسك مملوء بأفكار متداخلة، وملتفة على بعضها وباردة في ملمسها، إضافة إلى كونك نشطاً، ومهموماً ومثقلاً جداً .

للضجر صوت خاص به . يصل إلى مسامعك في مناسبات هذه الطبيعة، وفي غرفة بعيدة عن الوطن . هو صوت يشبه صوتاً تسمعه عندما تأخذ دودة الخشب المختبئة في أكل خشب الأثاث بحثاً عن مأوى لها .... نسمع دودة الخشب هذه وصوتها في قلوبنا الذي تشيخ فجأة . وكثيراً ما نستطيع أن نشعر بالمسحوق المجهري وهو يتراكم في نفوسنا، هذا المسحوق الذي تخرجه هذه الدودة وهي تحفر حفرة في الخشب .

وإذا ما صادف أن كنت شخصاً معتل الصحة، فمن الممكن جداً أن تبدأ بالتفسخ والانهيار قبل فوات الأوان .

ولأجنب نفسي من الانهيار، نادراً ما كنت أترك نافذة الشارع . فمنها كنت أراقب العالم .

* * *

النافذة بالنسبة إلي مثل عدسات الميكروسكوب الذي يركز على جزء صغير من جزيئات الإنسان . إنها تكبر، ما يراه المرء من خلالها . وكما لكل مرصد عيناً علمية لها نتوء في الهواء لمراقبة السماء والنجوم، لنافذة الشارع نظارات من الخبرة تنحدر إلى الأرض لمراقبتها مع من يسكن عليها .

ولهذا السبب، أفضل أن أراقب أنفسنا في الشارع بدل أن أغوص في السماء وألتصق هناك. أن ألتصق بهذا المنظار البسيط وأفحص عن كثب الإنسان والحيوانات هو إحدى هواياتي المحببة.

لدى جاري، المقابل لي، وهو ضابط أجنبي، كلب ضخم الرأس. لهذا المخلوق رأس كبير، وعنق ضخم، ووجنتين غائرتين، ورقبة معلقة، ومنخار أفطس، وسنين أماميين باديتين للعيان دائماً: كان فعلاً كلباً مشاكساً. وكان وجهه الكبير يذكرني دائماً بموظف مقطب الجبين نموذجي فقد كل أسنانه، ويستخدم أسناناً مؤقتة ريثما يحصل على طقم أسنان معدة له خصيصاً، وكانت النتيجة أن أصبحت عظام ذقنه غائرة بحيث أصبح من المتعذر التعرف على ذقنه.

ويبدو، من أجل التغيير فقط، كأن هذا الكلب المميز قد خبأ وجهه الحقيقي بأن وضع قناعاً جعله يبدو مخيفاً، وكئيباً، وساخراً. لاحظت أنه كي يمنع هذا الوجه الكئيب الذي يستعيره من السقوط، كان الكلب يبقي عنقه مرفوعة.

وضع كلب الجار هذا وضع أكثر الأقنعة عبوساً، لم يسبق لي أن رأيت مثله في حياتي. كأن الأمر لم يكن ضرورياً، ومؤذياً، وكريهاً أن يخطو خارج طريق المرء ليشبع رغبة العالم، اعتاد الكلب على النظر إلى الإنسانية بعيني فوضوي ماكرتين.

اعتاد بمعدل مرتين في النهار، كأنّه جندي سنغالي (كائن إنساني نصفه إنسان، لربما خلق من فحم كارديف، ولحمه وعضلاته معجونة بالقطران)، أن يخرج كلبه للنزهة، وهو يمسكه بإحكام من سلسلته. ولكن بصعوبة كبيرة جداً...! بدا الرجل الضخم أشبه بمدخنة سفينة عابرة للأطلنتيك. ويبدو عندما يجره هذا الكلب، كأنه قارب قطر يجر سفينة شحن.

وكان الكلب يُرى دائماً وهو يلهث بشدة، وأذناه منتصبتان، وعيناه تلمعان، ووجهه متغضن من الغضب.

ولو قطعت السلسة، فلن يتوانى بالتأكيد عن أن يشبّ مخالبه أمام أي شخص يريد أن يتقدمه، سواء أكان إنساناً أم حيواناً. ومثل الملزمة، لن يدع ضحيته تهرب أبداً. وخاصة إذا ما اعترض طريقه قطة أو كلب آخر، ينتاب فهو، وهذا هو اسمه، حالة من الغضب. وتسمعه وهو ينبح، ويعوي، ويئن!

يـا للـسنغالي المـسكين، فهـو لا يـستطيع أن يلفـظ حـرف"ج" في اسـم جوجـو حيـث يلفظـه عنـدما يناديـه بـأعلى صـوته "سوسو ،سوسو !"، بـل إنّه يـضرب الكلـب بحزامـه عبثاً . ويقـوم جوجـو بـالزمجرة المـستمرة، وهـو ينـبش الأرض بمخالبـه، ويقفـز، ويجعل من المستحيل السيطرة عليه . ثم، لا يكـون لديـه خيـار آخـر، يجره الرجـل إلى الخلـف، كأنـه يتمـزق بـالقوة، ثـم يدفعـه إلى المنـزل . وزوجتـه الأوروبيـة، بـشعرها الأشـعث، المـشغولة دائـماً بتهويـة تنانيرها لتهدئ من مخاوفها التي لا داعي لها بأن لهذه التنـانير روائـح كرائحة الشعر المبتل للكلب، كانت تـستند إلى الـشرفة وتـستدير إلى الكلب : "جوجو ،جوجو ! ياعزيزي !..."

وبهذا، يسود السلام مرة أخرى في الشارع . وأسال نفسي :" مـاذا سيحدث إذا ما انتزعت السلسة ذات يوم؟ أي شيء سيتم خسرانه؟"

ويا للأسف ! ذات يوم، وقع ما توقعته وما كنت أخاف منه، لقد أفلتت سلسلة جوجو من يد زنجي . وكحجرة تحررت من منجنيـق قفز الكلب واختفى عـن الأنظـار في لمـح البـصر . لم يـستطع أحـد أن يسرع بما فيه الكفاية ليمسكه . وكل ما استطاعوا سماعه هـو صـوت

نباح الكلب يبتعد عنهم بالتدريج، وراح الصوت من بعيد يخفت ويخفت. هذا كل شيء!...

وشرع الكلب ذو الرأس الضخم يقلب كل شيء في البلدة رأساً على عقب. من كان يعرف أي مآس كنا سنواجهها؟

لم يحدث أي شيء.

رأيت جوجو بعد يومين مربوطاً بالسلسلة، وهو هادئ تمام الهدوء. وهذا يعني أنه عاد، أو أن أحداً اقتفى أثره. لابد أن الكلاب المحلية الضارية قد سبقته بالتأكيد، واختبر هجماتها، وبقى دون مأوى ومشرداً، وتعلم الكثير من هذه التجربة المرة، وكان عليه أن يتعايش مع الجوع. لم يجد عند عودته مرافقه السنغالي والمرأة ذات الشعر الأشعث التي كانت تحرسه، وتخلى الكلب عن ضراوته، وعن كل غضبه الكبير، وأصبح طيعاً تماماً سهل الانقياد.

والآن، كلما كانوا يخرجونه لتنفس الهواء العليل، لم تعد للحرية وقعها الساحر بالنسبة إليه كما اعتاد سابقاً: لم تعد السلسة عبئاً لا يطاق. وبهذا، وبعد قليل، أخذ يرافق الجندي دون سلسلة. ودون السلسة، أصبحت قدماه جيدتان أثناء السير: أخذ ينظر إلى

العالم بنظرة فلسفية، لا نظرة غاضبة بل نظرة تأمل عميق . بدأت هاتان العينان تقيمان العالم الذي لم يعد يقفز وينط .

والمخلوق المخيف في الماضي تحول إلى كلب عادي بعد أن تخلص من سلسلته . وأطفال الشارع الذين لم يكونوا يجرؤون في الماضي من الاقتراب كلما تجمعوا حوله، أصبحوا يتسلون وهم يلقبونه بـ"سوسو، سوسو !" ولكن الكلب لم يتلق أي ملاحظة من ذلك الـ .... لأن كل فخامته وكل جرأته كان يدين بهما للسلسة، التي، كما كان يعتقد، كانت عصية عن الكسر .

أنا متأكد، أنه من الآن وصاعداً ستمر صورة هذه السلسة عبر عيني جوجو الحزينتين كذكرى أيامٍ مجيدة خلت .

يعقوب قدري قره عثمان أوغلو

أعظم الروائيين الأتراك في القرن العشرين، ولد قره عثمان أوغلو في عام١٨٨٩ في القاهرة. بعد أن تلقى تعليمه الابتدائي في تركيا، ذهب إلى مصر ودرس في الكلية الفرنسية في القاهرة. وعندما عاد إلى تركيا عام ١٩٠٩، عمل في تدريس الأدب والفلسفة، وبنفس الوقت راح يكتب المقالات والقصص القصيرة للصحف والمجلات، لمدة ثمان سنوات. وبعد أن انتصرت تركيا في حرب الاستقلال، انتخب كارا عثمان أوغلو عدة مرات في البرلمان الوطني. كما عمل دبلوماسياً في العديد من البلدان في أوروبا بين عامي ١٩٣٤ و١٩٤٢. وبعد أن تقاعد، انغمس في نشاطاته الأدبية بحماس كامل وأغنى بشكل كبير الأدب التركي بالقصص القصيرة، والروايات، والمسرحيات، والأعمال السياسية.

وخـلال هـذه الفـترة شـغل مناصـب هامـة في العديـد مـن الصحف ووكالات الأنباء في تركيا. توفي عام ١٩٧٤ عن عمر يناهز الـ٨٤ عاماً.

تعكس أعماله بشكل قوي الحياة في المجتمع التركي، بدءاً مـن الإصـلاحات الـسياسية في عـام ١٨٣٨ إلى تأسـيس الجمهوريـة. ونـرى في كتاباتـه، خـلال النـصف الأول مـن فـترة عهد الجمهورية رجل الأدب الوطني، المنغمس عميقاً في حب بلاد الأناضول وشعبها، والملتزم المخلص لمبادئ أتاتورك، بما فيها العلمانيـة. تـدور أعمالـه بشكل عـام حـول المشاكل الـتي يواجهها المجتمـع الـذي يعـيش فيـه. هـذا لأنـه يـؤمن إيمـاناً عميقاً بمبادئ "أدب المجتمع". ولغة كتاباته الأولى لغة ثقيلـة، وتتماشى مع تقاليد ذلك الزمان، لكنه سرعان ما قام بتغيير هذه اللغة إلى لغة أكثر بساطة تنسجم مع حركة بساطة اللغة الوطنيـة. وهـذا مـا أعطـى كتاباتـه قبـولاً خاصـاً لـدى عمـوم القراء.

رجل في الأربعة عشر عاماً

يعقوب قدري قره عثمان أوغلو

لم يكن السائق أيضاً يعرف الطريق الصحيحة . سيستدير الآن إلى اليمين ثم إلى اليسار . وما إن قاد السيارة بشكل مستقيم إلى الحقول، حتى أدار رأسه إلي ورمقني بنظرة حيرى، وسألني :

" هل نتجه إلى هذا الجانب، أم نتخذ ذلك الطريق؟"

بدأت أغضب مع مرور الوقت : " أي نوع من السائقين أنت؟ أنت لا تعرف الطريق ولا . . ."

" ولكن أين هو الطريق، يا سيدي؟ وكيف لي أن أعرف الطريق وهو أصلاً غير موجود؟" أجابني .

كان المسكين على حق . لم يكن ثمة طريق . . . سلكنا ما يدعى بالطريق وسرنا به مسافة، لنكتشف بعد عدة كيلو مترات أنه اختفى

من تحتنا . ووجدنا أنفسنا على ضفة جدول يتدفق من جانب واحد ويجري بمحاذاة التلة الحادة على الطرف الآخر .

وبشكل طبيعي، لم يكن هناك إمكانية الصعود إلى هذه التلة الحادة . وبهذا، اضطررنا إلى التنقل فوق الحصى على طول النهر، ونحن نتمايل ونهتز . . . وفي تلك الأثناء عبرنا ممراً للرعيان، الذي تعقبناه فترةً قصيرة . ثم وجدنا أن هذا الممر يفضي أيضاً إلى نهايته . ومن هناك ذهبنا إلى الحقول مرة أخرى ؛ ولكن الحقول كانت في العادة محاطة بالخنادق . ولأن السيارة محمولة على نوابض، استطعنا عبور الخنادق . كان علينا أن نتوجه إلى اليمين، ثم إلى اليسار، واستمرينا هكذا، مع صعوبة كبيرة وكثير من المشقة، حتّى وجدنا بعض آثار طريق خارج نهر التراب هذا ؛ رأينا هناك ممراً عليه آثار عربة يجرها عجل تتمايل أمامنا . اتخذ السائق هذه الممرات . وهناك جلست في تلك السيارة التعسة، وأنا أهتز وأتمايل دون انقطاع منذ هذا الصباح . عندما غادرنا القرية صباحاً، وصفوا لنا الطريق وأخبرونا أنه سيستغرق منا الطريق سبع ساعات حتى نصل إلى البلدة . ولكن أين ذلك الطريق؟ بعد مضي سبع ساعات ؛

اتخذنا طريقنا عند الفجر وها قد شارفنا على المساء . ماذا سنفعل؟ من سنسأل؟ كل ما يحيط بنا عبارة عن وحدة . . . وفجأة، صاح السائق :

" مرحباً ! مرحباً أيها السيد !"

أخرجت رأسي من بين الستائر في السيارة . كان السائق يصيح على أحد يسير على بعد مسافة عشرين أو ثلاثين متراً في الاتجاه نفسه . توقف الرجل . كان فتى نحيفاً، يبلغ عمره حوالي ثمان أو عشر سنوات .؟ يحمل كيساً وزنه أكبر من وزنه بمرتين، ويحمل حذاءه بيد واحدة، تقدم نحونا . سأله السائق :

" هل تعرف الطريق إلى البلدة، أيها السيد؟"

وأشار بيده النحيلة، الناتئة، التي لا يحمل بها شيئاً، باتجاه أحد المنحدرات التي أمامنا، وقال :

" هناك، فوق ذلك الطريق ." ثم أضاف قائلاً : " أنا أيضاً ذاهب إلى المدينة" .

كان لدى الفتى وجه جميل . بدا ملبسه وهيئته أنيقاً ونظيفاً . أحببت الطريقة التي قال بها : "هناك فوق ذلك الطريق" .

قلت له :" إذاً، اركب السيارة ولنذهب معاً . . ."

تـردد الفتـى لـدقائق، ونظـر إلي كأنـه لم يـصدق مـا قلـت . وضـع الكيس على الأرض، وكررت على مسامعه عرضي له :

" هيا بنا ؛ ضع الكيس قرب السائق واركب السيارة !"

أشرت إلى المقعد أمامي . وبحرص كبير، وضـع زوج حذائـه عـلى الكيس . وجلس هو نفسه قبالتي، وظهـره إلى الـسائق، وثنـى رجليـه تحته . ورحت شيئاً فشيئاً، أحب هذا الرفيـق أكثـر فـأكثر . كـان يتمتـع بوقار يكسبه الاحترام وحـاول أن يعطـي انطباعـاً أنـه حـسن التربيـة، وفـق معـاييره . اسـتمر في التحـديق بي بانتبـاه بعينـين متـسلطتين . وفي الواقع أحسست بالخجل من نظرته المحدقة تلك .

بدت ملامحه كملامح رجل ناضج . وفي الحقيقة، ليس أمراً شـائعاً أن تمر بأطفال في بلاد الأناضول لـديهم مثـل هـذه الملامـح الناضـجة، وهذا السلوك مثل رجال ناضجين . وكباقي المخلوقات، يبدأ هـؤلاء الأطفال بالسير، والعمل، وفهم الحياة، بدءاً من اليوم الـذي يولـدون فيه . لا توجد مرحلة من مراحل حيـاتهم يـستطيعون فيهـا أن يلعبـوا . ومـا إن يـصبحوا في عمـر الثامنـة أو التاسـعة، حتـى تبـدأ متـاعبهم

الاقتصادية بمهاجمة أجسادهم التي تنضج قبل الأوان كزرع. لا يمكن لهذا الفتى أن يكون منهم، ولكن لم لا؟

قلت له: "لنرَ، كم عمرك؟"

أجابني: "أنا في الرابعة عشر من عمري،" وراح ينظر أمامه بكبرياء غريب، اعتقدت أنه يبالغ بالتأكيد، لأني لم أضع له أكثر من اثنتي عشر عاماً.

"من أي قرية أتيت؟"

"من قره إيشيك (الضوء الأسود)، هي قريتي."

"وما الذي يجعلك تذهب إلى المدينة في مثل هذه الساعة المتأخرة من اليوم؟"

أشار إلى الكيس الذي على رأسه، وقال:

"أنا أحمل بعض الفواكه المجففة إلى المدينة. غداً هو يوم السوق،" أجابني: "تبدأ السوق باكراً. وإن غادرت صباحاً، فلن أكون قادراً أن أصل إلى هناك في الوقت المحدد."

بقي كلانا صامتاً لبعض الوقت. وراح الفتى يحدق بي باهتمام. سألته:

" كم يستغرق منك الوقت من قريتك حتى المدينة؟"

" إذا ما اتخذت الطريق سيراً على الأقدام، يستغرق مني الوقت، ست ساعات كاملة ."

" ست ساعات ! أليس كثيراً؟ ألا تتعب؟"

لم يفهم سؤالي . بدا من وضعيته كأنه يسأل نفسه :" أتعب؟ ماذا يعني هذا؟ انظر كيف يفكر هذا الرجل !"

قال :" أذهب إلى هناك كل أسبوع . وفور وصولي إلى المدينة أتوجه إلى المكتب التجاري لإسماعيل آغا . تعرف إسماعيل آغا، أليس كذلك؟ إنه خالي . أنهي عملي عند منتصف النهار . بعد أن أبيع هناك كل ما يمكن أن يباع، وبعد أن أشتري من هناك ما يلزم شراؤه، أذهب إلى حمام السوق، هذا إنْ تبقى لدي وقت . أو أذهب إلى سوق رجب آغا لآكل الكباب مع البن، وهذا مشروط ربما تبقى لدي مال فائض ."

" قلت إنك تبيع ما يمكن أن يباع وتشتري ما يمكن أن يشترى من هناك . لنرَ ما تشتريه مما تكسبه" .

قال لي : "أشتري ما أحتاج إليه . في بعض الحيان هناك حاجة للملح، وفي بعض الأحيان للسكر . أشتري حذاء لأمي، وجوارب لأختي الكبرى، وفي بعض الأحيان أشتري سترة لي" .

أشار إلى الحذاء الموضوع على الكيس، وقال :

" لقد اشتريت هذا الحذاء بمبلغ ثلاث ليرات الأسبوع الماضي" . حدق بي، وسألني :" أهو غالٍ؟ما رأيك؟"

" حسناً فعلت ؛ أنك حصلت عليه بهذا الثمن البخس" . . ثم سألته بفضول :" أليس لديك أب، أو أي أحد آخر؟"

أومأ إلي برأسه، بأن " لا" ؛ ثم لم يبد أي علامة من علامات الحزن، وقال :" انضم أبي إلى الجيش في زمن التعبئة . وتلقينا أوراقه العام الماضي" .

بالعامية القروية تعني " تلقينا أوراقه" يعني أن هذا الرجل قد مات .

قلت له :" هذا يعني أنك الآن، في مكان والدك، وأنت من يعتني بالأسرة؟" أومأ برأسه مرتين مؤكداً كلامي، اتخذ وضعية مريحة وهو يجلس قبالتي . قدمت إليه سيجارة . قبلها ووضعها في منديله .

" أنا لا أدخن. سأعطيها عمِّيَ في المدينة" قال لي. وشيئاً فشيئاً أصبحنا أكثر صراحة وهدوءاً، قال متابعاً كلامه: "كان والدي يدخن كثيراً، أما أنا فلا. ليس لدي الوقت حتى أدخن، أتعرف... عملي يغمرني حتى رأسي؛ وحتى بعد أن بدأت بعض المتاعب في قدمي والدتي، كنت أنا من صار يرعى القطيع، وأعتني بالحقول، وأحضر الحطب... وأختي الكبرى تحضر الماء وتهتم بأمور الطعام. وهي، مهما يكن، مجرد ضيف عابر في منزلنا. لأنها ستنتقل إلى قرية أخرى. لقد تمت خطبتها العام الماضي."

وراح نقاشنا يأخذ أبعاداً جدية. وحتى نغير أجواء هذا الحوار، قلت له وأنا أبتسم: " ولماذا لم تخطب أنت الآخر؟ أنظر إلى نفسك. ستصبح رجلاً، ثم ستساعدك زوجتك في عملك. هذه ليست فكرة سيئة، أليس كذلك؟"

نظر إلى وجهي بحزن.

" لقد خطبت، يا سيدي، لكن الأمر لم ينجح. ولن ينجح أمر خطبتي. لقد وقع للفتاة حادث وهي على وشك أن تغادر القرية المعادية..."

ذهلت إلى درجة أني أحسست بالاختناق. قلت له بصوت مرتفع: " ما هذا الذي تقوله؟ أهذا صحيح؟ أي حادث؟ أخبرني. أخبرني".

شعر الفتى بالخجل، وأطرق رأسه. قال لي:

" ربما اغتصبوها." وتابع كلامه وبصوت راح يصبح ثقيلاً تدريجياً: " لا، بالتأكيد اغتصبوها. أمام ناظري... مع فتيات أخريات من القرية، جروها إلى منتصف الغدير. صرخنا: " بحق الله لا تفعلوا هذا، بحق الله لا تفعلوا هذا" لكنهم لم يلتفتوا إلينا. أردت أن أذهب إليهم لكن والدتي لم تسمح لي." أنت ابني الوحيد. لن يوفوروك" قالت لي. كانت تبكي. لم أتحمل بكاءها. كان علي أن أستجمع نفسي."

لم أملك الشجاعة لأنظر إلى وجهه. أمام هذه القرية فتى كان يصارع أكثر الأحداث خطورة في الحياة، شعرت أني لست أكثر من مجرد طفل صغير عمره أربعة عشر عاماً، جبانٌ ولا تجربة لي، لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً. كنت كطفل يصغي إلى حكاية مخيفة جعلت شعر رأسه يقف وأجبرته على أن يقبع في زاوية ما.

* * *

نجيب فاضل قصه كورك

قصه كورك، أحد أشهر أدباء تركيا، ولد في استانبول عام ١٩٠٥. تلقى تعليمه المبكر أولاً في الكلية الأمريكية ثم في الكلية الفرنسية في استانبول. ودرس الفلسفة في الجامعة. ثم أرسلته الحكومة إلى باريس ليتابع تعليمه العالي. عاد، إلى بلده دون أن يكمل تعليمه. بدأ حياته المهنية مدرساً ثم ما لبث أن انتقل إلى الصحافة. عمل ككاتب عامود في العديد من الصحف لفترة طويلة من الزمن.

يُعرف بأعماله الشعرية، كما كتب أيضاً بعض المسرحيات الجميلة والقصص القصيرة التي أصبحت شعبية لدى القارئ التركي. أكسبته مسرحيته "ريس بيك" (القاضي) شهرة كبيرة، على المسرح وفي السينما. أمضى سنوات

عديدة في السجن، نتيجة لكتاباته الصادقة والمباشرة، ومعارضته للعلمانية،

استخدم كيساكوريك نسيجاً عريضاً لكتاباته، ومواضيع شعبية تتصل بموقف الإنسان من الكون، ومشاكله المادية والروحية وقلقه، ومشاعره العميقة، ومواضيع مشابهة ذات أبعاد فلسفية وميتافيزيقية. وضعه بعض نقاد الأدب التركي في منزلة أعلى من شكسبير. وتُذكر القارئ الأجواء الغريبة لقصصه القصيرة بالكاتب الفرنسي الشهير موباسان. وقد يكون مرد هذا التأثير إلى فترة دراسته في الكلية الفرنسية، ومتابعة تحصيله العالي في فرنسا.

توفي كيساكوريك، الكاتب الذي ألف عدداً كبيراً من الكتب، في استانبول عام ١٩٨٤ عن عمر يناهز التاسعة والسبعين عاماً، تاركاً وراءه عدداً ضخماً من المعجبين في الوطن والخارج.

المسافر

نجيب فاضل قصه كورك

لم يتـألف منزلـه إلاّ مـن حقيبـة كبـيرة . تحتـوى عـلى القليـل مـن البـزات الرسـمية، وبعـض القمـصان والملابـس الداخليـة، وأزواج مـن الأحذيـة، ومجموعـة تحتـوي أربعـين إلى خمـسين كتابـاً يعـدّها تستحق القـراءة في هـذا العـالم . وعلى الحقيبـة لـصاقات تتعلـق بكـل الفنادق الغالية في المدن الكبرى في أوروبا، وإيران، والهنـد، وبلـدان تمتد حتى اليابان .

ولديـه رصـيد كبـير باسـمه في بنـك سويـسري . وفي جيبـه دفـتر شيكات وحقيبة يد كبيرة يصطحبها معه، لا شيء آخر يفعلـه سـوى التجول من بلـد لآخـر . ويكـون جوابـه لمـن يـسأله عـن سـبب عـدم زيارته للبلد لأكثر من مـرة واحـدة :" لا يـستحم المرء في الماء نفسه

مرتين". وأصبحت هذه الجملة التي تعلمها من فيلسوف يوناني لازمة تصاحبه دائماً.

وكلمة " غريب"، في أي لغة من لغات العالم كانت، لها وقع السحر بالنسبة إليه. لقد اعتاد على صعوبة وصف كم أصبح مخيفاً بالنسبة لأصدقائه، ومعارفه وما إلى ذلك.

والسبب أنه، وهو يتجول في بلاد لم يرها من قبل، كان يبحث عن أشخاص يتحدث إليهم ولم يلتق بهم من قبل؟

في الهند، صادف رجلاً يلبس عمامة وله ملامح ساحر. ثبت هذا الرجل عليه عينيه السوداوين، المتلألئتين كحبتي زيتون مغمستين بالزيت، وقال:

"هل تتجول من بلد لآخر بحثاً عن مكان لم يسبق لك أنه زرته عندما تموت؟"

اخترقت هذه الكلمات مباشرة قلب المسافر. وفي لحظات، أطلق لسره الدفين العنان. وسأله، والخوف يملأ قلبه:

"كيف تعرف أني رجل مريض مقدر عليه الموت في أي لحظة؟"

" كل واحد منا مريض ومقدر عليه الموت في أي لحظة."

"ولكن ماذا عن المرض؟"

" نفس المرض الذي يصاب به الجميع، اللهم باختلاف نسب بسيطة. ولكن الإنسان يأخذ مثل هذه الاختلافات بروح تغيير المذاق السائغ. سواء أكنت تقيس الحياة بمقياس السنين، أو الأشهر، أو الأسابيع، أو الأيام، أو الدقائق، أو الثواني، كلها في حقيقة الأمر متساوية تماماً مع تلك المقاييس، التي تسمى، الثانية الواحدة."

استسلم المسافر:

" أخبرني الأطباء إني مصاب بالسرطان وأنه لن أعيش أكثر من عام واحد. ولهذا السبب قمت بتصفية حساباتي ورحت أتجول من بلد لآخر."

" ليس هذا بالأمر السيئ على الإطلاق. فهذه السنة الواحدة لن تصبح سنتين، حتى لو كررت نفسها مئات المرات. العمق الذي ستمنحه لروحك لا يمكن للعديدين أن ينجزوه حتى لو جاهدوا آلاف السنين. وها أنت ذا، تحاول دون طائل الهرب من الموت، بدل أن تفكر به بهدوء وتنتظره وأنت في مكانك. لقد انفصلت عن

علاقاتك وقطعت كل مصالحك كي لا يجني الموت الكثير منك، دون أن تدرك أنك بهذا السلوك، إنما ساعدته أن يحرمك من كل شيء تملكه".

ارتفعت مصاريع النافذة للعلاقات الخبيرة بالناس التي استمدها المسافر، وامتلأ الداخل بأشعة انبعثت من شخص الرجل الهندي المعم ذي النظرة الساحرة. وتابع هذا الأخير كلامه:

" الرجل الكهل، في الهند، مثله مثل التاريخ نفسه، كان يفعل بالضبط ما كنت تفعله. أمضى حياته كلها بحثاً عن مكان لم يزره الموت. وسرعان ما اكتشف أن الدخول إلى كل قرية والخروج منها كان دائماً من المقبرة، وأخيراً وصل إلى قرية لا مقبرة فيها. واستفسر فيما إذا لم يمت أحد في تلك القرية.

سألوه: " وما هو الموت؟"

" وكم كان سعيداً، كأنه اكتشف شيئاً عظيماً على الأرض. وقال لأهل القرية مرة أخرى:

" لا أرى شيوخاً في هذه الأنحاء. ماذا يحدث لأناسكم عندما يصبحون شيوخاً؟"

" تبسموا وقالوا له :

"آه أجل، فهمنا ما تعنيه . أترى تلك الجبال التي هناك . نسمع من حين لآخر، صوتاً من أسفل تلك الجبال . يصرخ باسم أحد السكان في قريتنا . والرجل الذي يسمع اسمه يتوجه نحو المكان الذي سمع منه الصوت الذي نادى باسمه، ثم يختفي إلى الأبد ."

" وفي تلك اللحظة بالذات، يأخذ الرجل بالبحث عن مكان آمن له من الموت الذي سمع اسمه ينادي عليه من خلف الجبال . . . يحني رأسه، ويسلم أمره لإرادة الله، في القرية التي كان يظن أنه سيكون فيها في مأمن من الموت . . . ."

قال المسافر : " يا له من أمر مخيف،"

" هذا يعني، أن الرجل في ظاهره عاجز تماماً أمام الطبيعة التي تحكم قبضتها عليه في داخله ."

" ماذا سيكون الجواب عندها؟"

" أن تسلم أمرك ."

لامس الرجل المعمم، وما نطق به المسافرَ في أعماقه بحيث أنه من لحظته قرر العودة إلى وطنه، كأنه وقع تحت رقية السحر .

وعندما عاد، وضع حقيبته في مكان ما على رف قرب السقف ورمى في صندوق التراب بالأربعين أو الخمسين كتاباً في الفلسفة والأدب التي كان يحملها . واحتفظ فقط بكتاب واحد حول العقيدة الدينية، اعتقد أنه يستحق القراءة، وانسحب إلى فيلته مع مربيته القديمة، وهي الوحيدة التي كانت مقربة إليه في هذه الحياة .

كان يوماً من أيام الخريف . أغلق الرجل على نفسه الباب في غرفته . عندما وقف أمام نافذة تحت شمس بعد الظهيرة، كان يقرأ نقاشاً حول الجنازة في كتابه حول العقيدة الدينية . كل الألوان والضربات كانت كل الألوان، والحركات كانت تناسب عيداً هزيلاً . وسمع صوت مربيته من الطابق ألأسفل :

"هل لك أن تأتي إلى هنا، يا بني ."

يا رءوف يا رحيم ؛ لم يسبق له أن سمع مربيته تناديه بهذا الصوت المرتفع من قبل . إذا كلما كان لديها شيئاً تقوله، كانت تقترب إليه كي تقوله له . ما الأمر؟ تساءل بينه وبين نفسه .

وسمع الصوت للمرة الثانية ." هل تأتي، يا بني ."

وفجأة فكر بالرجل صاحب العمامة وبالصوت الذي يصرخ من خلف الجبال من القرية التي لم يزرها الموت أبداً . أيمكن أن من

يصرخ ليس صوت مربيته بل أحد آخر يقلد صوتها؟ قفز من مكانه، وفتح الباب، وصرخ : " هل تنادين علي، يا جدتي؟"

وأجاب صوت المربية المنهك والمتعب :

"كلا يا بني، لم أناديك ."

رجع، وهو متفاجىء تماماً، وانهار على كرسي قرب النافذة . مرة أخرى سمع صوت المربية من الأسفل :

" هل لك أن تأتي إلى هنا، يا بني" .

جاهد حتى ينهض، اندفع بسرعة إلى غرفة الانتظار وراح يصعد الدرج . ومع رفرفات ستائر النافذة بفعل هبات النسيم، سمع الصوت من الدرج :

" من يناديني؟"

وتلا هذا صوت مكتوم مخيف . كان صوت جسد إنسان يتدحرج على الدرج ....

والرجل الذي كان يخاف من السرطان، ذهب ضحية سكتة القلب ورحل .

* * *

رسائل مجهولة

نجيب فاضل قصّه كورك

كانت الفتاة الشابة تتلقى رسائل غامضة منذ بضعة أشهر. رسائل مطبوعة، وغير موقعة.... تصف هذه الرسائل حياتها اليومية بدءاً من أكثر التفاصيل حميمّية والشخصية جداً. كان الجزء الأخير في كل رسالة يحتوي على جملة من بضع كلمات وهي عبارة عن نصيحة، ويوضع الحرف " ض" مكان التوقيع.

تبدأ الرسالة الأولى كما يلي:

" أيتها السيدة الصغيرة!

" بعد أن لم أتلق جواباً منك،كان مدير المكتب الذي تعملين عنده وضيعاً جداً عندما وبخك بحجة عملك في المكتب وبأنّك لست جيدة في الطباعة. وكان جوابك له:" سأتجنب دائماً الظروف

التي تحببني إليك !" حذارِ من هذا الرجل . إنه خطير . فهو ليس من أولئك الرجال الذين يفهمون التلميحات النبيلة ."

وأسفل هذه السطور كتب حرف " ض" ......

من تراه يكون كاتب هذه الرسائل؟ ... لا بد أنه ليس سوى المدير نفسه .... ذهبت إلى غرفة المدير متحججة بالعمل . وعيناها مثبتان في الأرض، وقالت :

" لقد تلقيت رسالتك !"

" أية رسالة؟ ."

الرسالة التي وقعتها بحرف الـ" ض ."

" هل جننت؟"

" من فضلك، هاهي الرسالة !"

أخرجت الرسالة من حقيبتها، وناولتها إلى المدير . أنهى المدير قراءة الرسالة وقال :

" لم أكتب هذه الرسالة !"

وفي الحقيقة كان المدير على حق إذ لم يمضِ وقت طويل حتى ثبت كلامه . حيث استمرت الرسائل بالوصول واحدة إثر أخرى، وبا لتفاصيل الدقيقة التي فيها خصوصيات حول الفتاة !

" أيتها السيدة الصغيرة !

"لقد حطمت قلب أمك التي حذرتك من عدم التجول من محل تصوير إلى آخر . لقد جعلت ذلك الشخص المسكين يذرف الدموع لساعات ثم يخرج متسكعاً . لا تنسي أن الجنة تحت أقدام الأمهات !...."

ومرة أخرى الحرف " ض"

وأخيراً جاء الوقت الذي بدأت فيه الأمور تخيف هذه الفتاة الصغيرة حتى الموت . كانت أمها أمية . لم تكن تعرف شيئاً سوى أن تنظف الغبار عن الآلة الطابعة التي في غرفة نوم الفتاةّ . وبشكل طبيعي، لم تكن تتمكن من طبع هذه الأحرف . إذاً من تراه يكون؟ من لا يعرف بهذا الأمر المؤسف على وجه الخصوص غير الأم وابنتها؟ ... أم تراها تتلقى تحذيراً إلهياً؟

ازداد عدد الرسائل الواردة إلى رسالة كل يوم . بدءاً من الشحاذ الذي يطلب صدقة وترفض أن تعطيها له، قائلة له بقسوة أن يطلب الصدقة من الله، وانتهاء بالفرو الذي اشترته بالدين ولم تستطع وفاء ثمنه، ومن الفضائح التي تلفقها في أثناء النهار، إلى

الموعد الذي كان لديها مع شاب أنيق من دعـوة قبلتهـا ثـم رفـضتها، بعدما غيرت رأيها في اللحظـة الأخـيرة.... كانـت الرسـائل تحتـوي على كل شيء وعلى أشياء كثيرة جداً!...

أصبحت الآن على حافة الجنون، وكي تحـل هـذا اللغـز، راحـت تذهب إلى مشعوذ تلو آخـر. نـصحوها أن تـرى ناسـكاً، رجـل ديـن يُعرف عنه أنه يجد الحقيقـة الإلهيـة. ودون أن ينطـق بكلمـة واحـدة، راح الناسـك يـصغي إلى الفتـاة ويجعلهـا تقـرأ الرسـائل التـي أعطتـه إياها.

" استمعي إلي يا ابنتـي! لا يعـرف الغيـب سـوى الله، ولا يمكـن لأحد أن يحل هذا اللغز. ويبـدو أنـك تعـانين مـن خـوف مريـع مـن الخطيئـة!... وهـذه حالـة عقلـك الـذي يجعـل أحـداً مـا يكتـب هـذه الرسائل!"

" ومن هو هذا الشخص؟"

يا لـه مـن أمـر مريـع!... خرجـت الفتـاة مـن عنـد رجـل الـدين، وتلقت الرسالة الأخيرة:

" أيتها السيدة الصغيرة.

الرجل المعروف المكشوف له الحجاب قد صدقك القول. الرسائل هي من صنع ضميرك أنت. فعلاً، والحرف "ض" المزيل أدناه يثبت هذه النقطة، أليس كذلك؟ ابحثي عن ضميرك!"

(التوقيع ....ض).

تم حل اللغز....

هناك قرع على باب الفتاة. كان هذا ساعي البريد الذي قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

"ها هي رسالة أخرى مثل التي تتلقينها كل يوم...."

هل تأتي هذه الرسائل دائماً من مكتب البريد؟"

" ليست هذه فقط، إذ يرمي بها أحدهم في صندوق الرسائل في باب صندوق بريدك. لقد اكتشفت هذا لتوي وأنا أنظف صندوق الرسائل. لقد قام أحد زملائي بتنظيف الصندوق ليلة البارحة."

" حسنٌ، هذا يدل على أن الرسائل تأتي من شخص يعيش في هذا الشارع بالذات."

" من شخص يعيش في هذه الشقة، ربما.."

في تلك الليلة،لم تستطع أمها النوم بسبب آلام الروماتيزم. عندما سمعت صوتاً، نهضت مسرعة إلى الممر. هناك رأت ابنتها وهي تضع ثوباً أبيض على ظهرها، مستقيمة مثل التمثال، تتجه نحو الباب الأمامي... وراحت تراقب الفتاة من الخلف... كانت يدها اليسرى على صدرها بينما كانت يدها اليمنى متدلية.... كانت تحمل بيدها اليمنى ظرف رسائل...

وكي لا تجعل ابنتها ترتعب، تسمرت في مكانها الذي تقف فيه. لقد كانت تعرف أن ابنتها مصابة بداء السير في النوم.

* * *

سعيد فايق عباسي يانكي

ولد سعيد فايق عباسي يانكي في عهد الجمهورية في أدابزاري قرب استانبول، عام ١٩٠٦. وبعد أن درس في كلية الآداب في استانبول، أرسله والده إلى سويسرا لدراسة الاقتصاد. لكنه لم يجد في نفسه أي اهتمام في دراسة الاقتصاد، غادر البلد متوجهاً إلى فرنسا حيث بقي فيها مدة ثلاث سنوات. وهناك نما عند سايت فايق الحس الفني، ليس من خلال تلقيه لأي تعليم رسمي بل من خلال تجواله هنا وهناك وتمتعه بالحياة على حساب ثروة أبيه. وعمل في تركيا مدرساً لفترة من الوقت، ثم حاول أن يجرب حظه في التجارة دون أن يحالفه الحظ كثيراً فيها، وانتهى به المطاف إلى محرر قانوني في إحدى الصحف. وبعد وفاة والده، ورث عنه ثروة مكنته من البقاء في المنزل، بعدما

تخلى عن الشركة إلى أمه الأرملة. وفي هذه الأثناء، واعترافاً لمساهماته في الأدب التركي الحديث، انتخب عضوَ شرف في جمعية مارك توين في أمريكا. وبعدما انغمس في تعاطي الكحول والإفراط في الحياة البوهيمية، توفي في سن مبكرة تناهز الثمانية والأربعين عاماً، في عام ١٩٥٤.

ويُعدّ سعيد فايق رائداً في القصة القصيرة الذاتية في تركيا. كان ينظر إلى الإنسان، والطبيعة، وإلى كل شيء بمشاعر حب دافئة. وشكلت انطباعات الطفولة والشباب، وتجارب الحياة مادة خام لقصصه. وأبطال قصصه هم: صياد السمك العادي، والمعدم، والمتشرد، والمتسكع وأناس من هذا النوع الذين صادفهم في الحياة، أو قابلهم في زمن ما في مكان ما، أو من الذين كان يراقبهم عن بعد أو من أحياء قريبة. وقصة" صديقي، بائع الكستناء" الموجودة في هذه المجموعة هي من عيون القصة القصيرة التركية، وهي نموذج لهذه السمة المميزة عند سايت فايق.

بدأ سعيد فايق حياته الأدبية بكتابة الشعر حيث لاقت بعض أعماله الشعرية الاستحسان. ولكن بقيت القصّة

القصيرة ملعبه. كان يتمتع بأسلوب بسيط، ويستخدم لغة صافية تفهمها العامة بسهولة. وكان صديق المقموعين والعدو اللدود للقامعين والظالمين، كان يهدف إلى حياة أفضل نعيش فيها.

جمعت قصصه القصيرة البالغة ١٧١ قصة قصيرة في ثلاثة عشر مجموعة. وترجمت معظم قصصه إلى لغات العالم الأخرى.

صديقي، بائع الكستناء

سعيد فايق عباسي يانكي

بعدما اكتشف من أوراق هويته أنه في الرابعة والعشرين، ذهب ووقف أمام مرآة وجدها في نافذة حانوت لبيع السجائر .

تفاجأ من رؤية رجل في المرآة . قبل ذلك اليوم، لم يسبق له أن رأى وجهاً كهذا . ولكن هل سبق له أن نظر إلى المرآة قبل هذا . لم يتذكر .

متى اشترى هذه الملابس التي يرتديها؟ من أعطاه هذا البنطال؟ وهل يرتدي زوجاً من الأحذية؟

يا للمفاجأة ! لديه لحية نابتة . عيناه كانتا تلمعان، كأنهما مُلمعتان .

لاحظ قصاصات الورقة تنظر خلال قبّعته المستدقة والبالية، مزقها . مرر إحدى يديه على شاربيه المتدلين، كانا لا يزالان دقيقين

وهما متدليان. أكان في الرابعة والعشرين من عمره حقاً؛ واستنتج أن عمره قبل ثلاث سنوات، عندما كان مجنداً إلزامياً، كان واحداً وعشرين عاماً. ولكن لماذا كان مجرد طفل في تلك الأثناء؟ ألم يكن رفاقه الجنود ينادونه بـ" الطفل"؟

في سعيه وتوقه ليبقى صغيراً إلى الأبد، استمر في العمل خادماً في مقهى، يؤدي مهامه وهو يأمل ألا يكبر أبداً أكثر مما كان عليه في اليوم الأول من عمله خادماً. وفي حقيقة الأمر، لم يكن يبدي أي دلالة أو علامة جسدية على أنه يكبر منذ ذلك الحين.

ومنذ عهد قريب، كان أصدقاؤه من بائعي صحف، وشحاذين قُصَّر، ولا يشعر بسعادة عندما يحادثهم؟ لماذا لا يقيم صداقات مع مجموعات من عمره؟ ألم يرغب بمثل هذه الصداقة؟ كلا، لم يكن يرغب.

كان هذا الصبي القزم يدعى أحمد وقد سلمته جدته إلى أستاذ سليم[1]، صاحب المقهى، عندما توفيت أمه. وعمل عند أستاذ سليم مدة زادت عن عشر سنوات. كما لاحظ رواد سليم

(١) Ustad Salim: هكذا وردت في النص الأصلي.

الدائمون أن الصبي لم يكبر طوال تلك السنين . وقال له أحدهم، يخاطبه :" أنا من رواد مقهاك منذ ما يزيد عن عشر سنوات وهذا الصبي بقي كما هو طوال تلك السنين . أنا متأكد أن عمره يزيد عن واحدٍ وعشرين عاماً الآن، تجب عليه الخدمة الإلزامية . ما رأيك يا سليم آغا؟"

ألقى الشيخ سليم نظرة على أحمد الصبي، بدت كأنها نظرة شفقة، وقال :"عشر سنوات، يا إلهيّ كأنها كانت البارحة عندما أتى إلى هنا" .

قال الزبون :" يعتريني الإحساس نفسه . ولكني اليوم فقط أدركت أنه لم يعد طفلاً . لا أقول هذا بسبب تغييرات طرأت على بنيته الجسدية بل من حقيقة أن أسفل وجهه أصبح أكثر اسوداداً ."

عندما عاد من خدمته الإلزامية، وجد أحمد مقهى سليم آغا مغلقة . وحلت مكانها بقالية . نظر إلى البقالية برهة . كان هذا المكان منزلاً له . وبقي سنوات، بعد وفاة جدته، وهو ينام على مقعدها الخشبي، وفي بعض الأحيان تحته . هل عليه أن يسأل عن عنوان سليم آغا الجديد؟ كلا، قد لا يكون هناك جدوى من هذا، قال

لنفسه. نزل ببطء من منطقة فاتح باتجاه شاهزاد باشي، ورأى سبعة أشخاص قذرين يحملون نعشاً. كان مغطى ببساط مألوف، وغطى شال منطقة الرأس. الآن أصبح يعرف عنوان سليم آغا الجديد. صرخ:

" يا سليم آغا! يا أستاذي!"

لم يكن يحمل في جيبه بنساً واحداً. لم يكن قد تناول لقمة واحدة من الطعام منذ ذلك الصباح. وصل إلى جسر غالاتا عند الظهيرة. وأضفت ريح شمالية غربية دافئة مساء أواخر شهر تشرين الأول لمسة من الصيف. راقب الغيوم الوردية، ومآذن الجوامع، والقبة اللامعة، والبطانة الذهبية حول غيمة داكنة خلف جامع السليمانية من بعيد، وهبة ريح بين الناس.

خيم الليل. بدأ بملاحقة رجل، يرتدي أسمالاً بالية مثله. كان الرجل يقترب من أي رجل يحمل حقيبة، يلقي عليه نظرة غريبة، ثم يسأله:

"هل أحمل لك الحقيبة، يا سيدي؟"

كان أحمد أيضاً يردد هذه الجملة في قلبه ما يزيد عن عشرين مرة" هل أحمل لك الحقيبة، يا سيدي؟" ثم استجمع قواه واقترب من رجل ينتظر قرب حقيبة ضخمة.

" هل أحمل لك الحقيبة، يا سيدي؟"

" هيا !" قال الرجل.

رفع الحقيبة. نزلا منحدراً ووقفا أمام أحد المنازل. سأله الرجل: " كم علي أن أدفع لك، يا بني؟". ابتسم أحمد، وبدل أن يجيبه، ثبت بصره إلى الأرض. دفع له الرجل ربعين. ابتسم له أحمد مرة ثانية ورحل.

عمل حمالاً مدة سبعة أشهر كاملة. لكنه لم يحب هذا العمل. والنقود التي كان يكسبها، كان يستطيع أن يأكل منها القليل. أصبح ضعيفاً جداً بحيث ظن ذات يوم أنه سيتحطم تحت الحمل الثقيل. أصبح حساساً لكل المشاعر، باستثناء ألإحساس بالبرد، والحرارة، والجوع. ولم يدرك أيضاً متى تجاوزت درجة حرارة جسده الستة والثلاثين ونصف. وفي ذات يوم، عندما كانت درجة حرارته الأربعين، انهار وهو ينتظر حملاً. ظن الناس أنه ثمل. أخذوه إلى قسم الشرطة وهناك صبوا على رأسه الماء. وعندما استفاق، ابتسم. وسرعان ما لاحظ ضابط الشرطة أن كل الماء الذي صبوه على رأسه قد تبخر. عندها قال:

" الصبي ليس ثملاً، بل مريض ."

يتذكر عندما تم تخريجه من المشفى . أه أجل، حصل هذا عندما أعطاه الطبيب الشاب الحذاء، والقميص والبنطال الذي يراه على جسده في المرآة . ولكن ماذا عن السترة – هل أعطاه إياها أستاذ سليمان؟

تذكر أنه يملك في جيبه خمس عشرة ليرة . وأعطاه الممرضون سبع ليرات أخرى .لماذا أعطوه تلك النقود، تساءل في نفسه . هل كانت حالته تثير الشفقة إلى هذا الحد؟ بالطبع في العالم الكثير منهم . . . وبما أنهم يعرفون أن في جيبي خمس عشرة ليرة، لماذا أعطتني الأخوات مزيداً من المال؟ تذكر ما قالته له ممرضة كبيرة، سمراء :

" تستطيع القيام بعمل ما . تبدو صبياً مهذباً ." وقالت ممرضة أخرى ملاحظة :

"يا له من صبي جميلّ، هل تعتقدين أن عمره يبلغ ثمانية عشر عاماً؟" وسألت زميلة لها التي كان جوابها :

" بل هو في الرابعة والعشرين . هذا ما تقوله أوراقه ."

يوم آخر تهب فيه ريح دافئة، جنوبية غربية. قام بعد النقود التي في جيبه وقال لنفسه: "يجب أنت أقص شعري."

وقص شعره. ولمع حذاءه. وساءت حالة الطقس فجأة. وهبت الريح الشمالية الشرقية حاملة معها برودة في درجات الحرارة. تمنى لو أن الطقس يتحول إلى طقس سيء في الليل، بدل أن يفسد ليلة جميلة، ودافئة. عندما هبت الريح الشمالية الشرقية، أعلنت عن نوع شائع من الغيوم الباردة وجعلت سكان استانبول يتجمدون من البرد. حتى إن أحداً لم يتخيل أن يسبح في البحر. تصبح الأمور مختلفة عندما تهب الريح الجنوبية الغربية. تغطى سماء استانبول بغيوم وردية، ومستديرة بحجم البرتقال. ويتحمل مزاج أهل استانبول تقلبات الطقس. حتى لو كان الطقس شتاءً، يستطيع المرء أن يسبح في البحر، أو على الأقل هذا هو الشعور الذي يعتريه.

سأل نفسه: "أي عمل بإمكاني القيام به بهذه النقود؟" ونسي كرهه للريح الشمالية الشرقية. وهو يصل إلى مكان فارغ بين صفوف الحوانيت، شحب وجهه فجأة. وقفز قلبه من مكانه كشخص بدت أمامه محبوبته من مكان ما. هنا، وتحت الأضواء

الساطعة، رأى رجلاً يبيع الكستناء. كان يرتدي ثياباً مثل ثياب أحمد تماماً – قلنسوة مدققة، سترة بالية، وبنطالاً أصفر اللون. يجلس على كرسي صغير، ويحمل زوجاً من الملاقط بيد واحدة، كان يقلب باستمرار الكستناء على النار، كأنه مستغرق في تفكير عميق. وكان ينادي كل دقيقتين، بشكل آلي:

"سخنة ومشوية يا كستنا!"

كان رأس الرجل متدلياً. لوهلة، ترك الملقط، ونهض وهو يصرخ:

"طيبة!"

اقترب احمد من البائع:

"هاك، أعطني بخمسةِ قروش كستناء."

راح البائع يُلمع كفتي الميزان. كانت سلسلة الميزان تلمع تحت الأضواء الساطعة للحوانيت المجاورة. ومن كفتي الميزان البراقتين سقطت بضع حبات من الكستناء بين يدي أحمد.

"لماذا لم تعطني من هذه الكستناء السخنة؟"

"وماذا ستفعل بالكستناء الحارة؟ خذ، خذ المزيد."

حسنٌ، في هذه الحال لن أمانع إذا كانت باردة . قل لي، كم دفعت ثمناً بهذا الميزان؟"

" ست ليرات ونصف ."

" هذا كثير . وماذا عن المجمرة؟"

" أربعة عشر ."

" مع الملقط؟"

" أجل ."

أمضى تلك الليلة في مقهى مفتوح على مدار الساعة . ويالها من أحلام جميلة تلك التي حلم بها تلك الليلة . . . كل شيء كان جاهزاً في صباح اليوم التالي، ماعدا أنه لم يكن لديه المال لشراء الكستناء الخام .

كنت أعرف أحمد منذ فترة طويلة . كنت أنا من قدم إليه العمل في مقهى سليم آغا . وأريته الآن المكان الذي سيبيع فيه الكستناء . مكانه قرب كازينو موسيقي، والمكان يحتشد كثيراً عند المساء . وفي كل ليلة، عندما أغادر الكازينو، وأنا نصف ثمل، أمد يدي وأتناول حفنة من كستناء أحمد . لم أكن أدفع إليه أبداً ثمناً لها . بل كان يرفع

رأسه، ويبتسم إلي ابتسامته المألوفة كابتسامة طفل ثم يتابع تقليب الكستناء على النار بالملقط . وهو يقوم بهذا، يبدو كأنه مستغرق بتفكير عميق . وغالباً ما كنت أتساءل إذا ما كان يكرر في ذهنه :

" آه، يا أستاذ سليم !"

وكان ينادي في كل دقيقتين :" سخنة يا كستناء ! سخنة تُحرق يديك !"

في ليلة ما، كنت قد شربت حتى الثمالة، تناولت حفنة من الكستناء من سلة أحمد كالعادة، ووضعت داخلها فئة نقدية ذات ليرة واحدة . لحقني وأعاد إلي النقود .

قال محتجاً : "ما كان يجب أن تفعل هذا يا آغا !"

وفي الليلة التالية، مررت قربه دون أن آخذ كستناء .

صرخ بصوته ساخراً :" أتتجاهلنا، يا آغا؟"

عدت أدراجي إليه . وأخذت حفنة من الكستناء كالعادة، وأكدت له قائلاً :

" وكيف لي أن أتجاهلك، يا عزيزي أحمد؟"

ذات ليلة لفت انتباهي، هرج ومرج، عدوت إلى زاوية الشارع. رأيت مجمرة أحمد مرمية على الأرض والكستناء مبعثرة في أرجاء الرصيف النظيف. كان هناك ولد عار يجمع الكستناء المرمية على الأرض. كان أحمد يصرخ بشكل هستيري على الطفل:

" خذها، كلها، ضعها في جيوبك، فأنا لا أريدها!"

كان لون وجهه أحمر تماماً وشعره أشعث. كان يسب ويلعن كما يفعل السكارى.

سألته: " ماذا هناك يا أحمد؟"

" ممنوع! قالوا لي إن بيع الكستناء هنا ممنوع! ورموا بمجمرتي. ولا يهمك، يا آغا. سأبدأ بعمل آخر، فلا تقلق."

وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد أوليت هذه الحادثة اهتماماً كبيراً. لكن ما لبثت أن لاحظت في وجهه شيئاً هو أكثر من مجرد حزن. بدا كأنه عانى من أزمة عقلية حادة، لأنه اقتلع شعر رأسه. واقتلع المجمرة من الرصيف، ورماها على الطفل العاري وصرخ: " خذ هذه أيضاً!" ثم غادر.

وفيما بعد، خلال عملي محرراً قانونياً لإحدى الصحف، رأيت أحمد من بعيد. كانت يداه مقيدتين. ووجهه مطأطئاً. كان يرتدي

قميصاً داخلياً قذراً وبنطالاً بالياً، لونه بين الأزرق والأحمر . وكانت قدماه الملطختان بالسواد دون حذاء .

وبدل أن أراه وهو في هذه الحالة، فضلت أن أتجنبه . قلت لنفسي : " من يعلم مقدار الألم الذي سيشعر به عندما يراني؟" وبينما كنت أحاول المرور قربه، انزرع أمامي وهو يبتسم لي ابتسامة مزعجة . قال وهو يخاطب الحارس الذي إلى جانبه :

"توقف قليلاً، أيها السيد ؛ أشعر أني بحاجة إلى سيجارة . دعني آخذ واحدة من الآغا ."

صرخت : " آه، أحمد !" ورحت أرثي له وأنا أعطيه علبة السجائر .

" لو كان معك بعض النقود، أعطني إياها يا آغا !" قال لي مستجدياً .

أعطيته خمساً وعشرين قرشاً ..... كأني سألته كيف انتهى به الأمر إلى هذه الحال، تطوع بالإجابة وهو يشعل سيجارته :

" هذا ما تفعله بك الهروين، يا آغا !"

* * *

السماور[1]

سعيد فايق عباسي يانيك

" لقد انتهى آذان الصبح . انهض يا بني وإلا فستتأخر عن عملك" .

لقد وجد علي عملاً أخيراً . كان قد مر أسبوع منذ أن أصبح يذهب إلى المصنع . كانت أمه سعيدة . كانت قد أنهت صلاتها وأنهت تضرعها إلى الله . عندما دخلت غرفة نوم ابنها، لم تشعر أنها توقظ ابنها الطويل القامة، والبدين، ذي الوجه الشاب، الذي يحلم بالآلات، والبطاريات الكهربائية، والمصابيح، وتشحيم الآلات، وأصوات محركات الديزل . كان يتصبب عرقاً وتحوّل لونه إلى الوردي المحمر، كأنه خارج لتوه من المعمل .

---

(١) Samovar : السماور : إناء لإعداد الشاي .

كانت مدخنة المصنع الموجودة في هالسي أوغلو، قد رفعت رأسها، وبكبرياء المغرور، راحت تراقب توهج ما قبل الشروق على منحدرات كاجي تين. بدا كأنها ستبدأ بالصياح.

واستيقظ أخيراً. عانق أمه. وكالعادة، دفع اللحاف وغطى نفسه به ثانية. دغدغت أمه له رجليه اللتين كانتا خارج اللحاف. وقفز الابن وأمه من السرير دفعة واحدة، ووقعا على السرير مرة أخرى. ضحكت من قلبها ضحكة تذكر المرء بضحكة فتاة شابة. وقد يقول المرء إنها سعيدة للغاية. طبعاً هما ينتميان إلى حي لا يوجد فيه سوى القلة القليلة من الأناس السعداء. هل تملك الأم أي مصدر للدخل عدا ابنها، وهل للابن أي دخل غير أمه. بالتأكيد لا. عانقا بعضهما، وتوجه الاثنان إلى غرفة الطعام. كانت رائحة الطعام المحمص تملأ الغرفة. كم يبدو السماور جميلاً والبخار يخرج منه؛ اعتاد علي على تشبيه السماور بالمصنع الذي لا يعرف الراحة، لا توجد فيه إضرابات ولا حوادث. إنه مصدر الرائحة، والبخار، وبهجة الصباح.

وفي الصباحات الباكرة، كان هناك شيئان هما مصدر سعادة علي: السماور وجرة معدنية من أجل "السحلب" تنتظره أمام

المصنع . كانت هناك أصوات يحبها . صوت آلة الترومبيت من مدرسة هالسي أوغلو العسكرية، وصافرة المصنع الطويلة . وكلا هذين الصوتين يرفعان الأمل في فكره، ثم ما تلبث هذه الآمال أن تمحى . هذا يعني أن صديقنا علي صاحب طبيعة شعرية . وهذا يشبه ارتباطه الحساس بالعمل الكهربائي في مطحنة كبيرة التي هي، بدورها، ليست أكثر من ماصة لمحيط كبير في غولدن هورن . هذا هو تصنيف الناس الذين ينتمون إلينا ــ كعلي، وحسان، ومحمد . ثمة أسد يربض داخل كل واحد منا .

قبّل علي يد أمه، ثم لعق شفتيه كأنه يتناول حلوى . هذا ما جعل أمه تضحك؟ كان من عادته أن يلعق شفتيه عقب كل مرة يقبل فيها يد أمه . وفي آنية الزهر الموجودة في مرج المنزل نما الحبق، كسر هذه الأزهار بأصابعه،، ثم راح يشم راحتي يديه، ومضى .

كان الصباح بارداً . وغطى الضباب غولدون هورن . التقى بأصدقائه على سطح المركب، كلهم من الشباب المتحمسين . عبر خمسة منهم إلى هالسي أوغلو .

سيعمل علي اليوم بأكمله باهتمام كبير، وبعزم لا يلين، وبرغبة متوهجة، ولكن دون أن يتمنى استعراض التفوق في الأداء على

أقرانه . بل سيعمل بشرف ودون تباه . قام بهذا رغم أنه تعلم كيف يتباهى وهو يعمل . والرجل الذي علمه العمل كان كهربائياً وقوراً في استانبول . كان ألمانياً؟ ويحب علّياً كثيراً . ووثق بعلي في كل خدع التجارة . علمه أن سر الظهور متفوقاً أمام من يعرفون العمل على نحو متساو يكمن في الذكاء والسرعة، أقل أو أكثر في أن تكون رياضياً . بمعنى آخر، الشباب هو السر الحقيقي .

وفي المساء، عاد علي إلى المنزل، سعيداً وواثقاً تماماً في أنه جعل أصدقائه يكسبون صديقاً جديداُ، يمكن الوثوق به، وأن أستاذه كسب عاملاً يستحق ثقته .

بعد أن عانق أمه اندفع إلى مقهى يقع على قارعة الطريق لينضم إلى أصدقائه . بعد أن لعب الورق وشاهد مباراة رائعة في لعبة الطاولة، عاد أدراجه إلى منزله . كانت أمه تصلي قيام الليل . وكعادته، مر من أمامها . ثم راح يتدحرج على سجادة الصلاة وأخرج لسانه حتى يجعل السيدة العجوز تضحك . وأخيراً، نجح في هذا . عندما كادت أن تنتهي من صلاتها .

قالت له :" يا عزيز علي، هذه خطيئة يا بني . هذه خطيئة يا ولدي العزيز . لا تفعل هذا" .

" الله يغفر يا والدتي" قال علي .

ثم سألها ببراءة : " ألا يبستم الله أبداً؟"

بعد تناول طعام العشاء، استغرق في قراءة رواية لناتبينكرتون بينما كانت أمه تحيك كنزة له، ثم، بعد أن أخرج الفراش الذي تفوح منه رائحة اللافندر من المخزن، افترشا هذا الفراش على الأرض وخلدا إلى النوم .

نهضت والدة علي من نومها مع آذان الفجر .

في الغرفة المملوءة برائحة الخبز المحمص، كان السماور يصدر بخاراً جميلاً . كان علي يشبه السماور بالمصنع الذي لا يعرف الراحة، ولا الإضرابات، ولا المدير . كان هذا، عبارة عن مصدر الرائحة، والبخار، وبهجة الصباح . .

* * *

جاء الموت أمَّ علي زائراً، كانت سيّدة تخشى الله وتنأى بوجهها عن الجوار . اعتادت أن تمضي صباحاتها وهي تعد طعام الفطور لابنها، وأمسياتها في طهي بعض الأطباق . كانت تشعر ببعض الألم في حافة قلبها، ومع قدوم المساء، وهي تصعد الدرج مسرعة، راح

جسدها المتغضن، الذي تفوح منه رائحة القماش القطني يتصبب عرقاً، أحست بالإجهاد والوهن.

أحست بالدوار، ذات صباح، قبل أن توقظ علي، إلى جانب السماور. ركنت إلى كرسي قريب. وتلك كانت رقدتها الأخيرة.

رغم تساؤله لماذا لم توقظه أمه في ذلك الصباح، لم يدرك علي لمدة طويلة أنه أصبح يتأخر عن عمله. والتأثير الكبير والمميت لصافرة إنذار المصنع قد أصبحت رطبة بفعل الألواح الزجاجية. وصم الصوت أذنيه بهدوء،كأنهما دخلتا اسفنجة. قفز وتوقف أمام مدخل غرفة الطعام حيث راح يراقب السيدة المتوفاة التي وضعت يديها على الطاولة وكان واضحاً أنها غافية على ما يبدو. اعتقد أنها نائمة. تقدم ببطء وحملها من كتفيها. وفي اللحظة التي وضع فيها شفتيه على وجنتيها اللتين راحتا تبردان، ارتجف.

مهما فعل المرء في حضرة الموت، يكون المرء في أفضل حالاته أشبه بممثل ناجح، ممثل نجح، وهذا كل ما هنالك.

حملها، وأخذها إلى سريره، غطى نفسه معها باللحاف، وحاول أن يمد أمه الباردة بالدفء. ثم أحس بالعجز، وحاول جاهداً أن

يضخ حيويته ونشاطه داخل هذا الجسد الذي أصبح بارداً كالثلج، شدها إلى الفراش في الزاوية. ورغم كل جهوده، إلا أنه لم يستطع البكاء في ذلك اليوم. احتقنت عيناه كثيراً لكنهما لم تذرفا دمعة واحدة. نظر إلى المرآة. في وجه هذا التعس الكبير، لن يكون ممكناً بالنسبة إليه أن يكون له وجهٌ مختلفٌ عن وجه شخص لم ينم طوال الليل؟

أراد علي أن يصبح ضعيفاً مثيراً للشفقة فجأةً. أراد أن يصبح شعره أشيبَ في زمن قصير. تمنى أن يصيبه تقوس مضاعف في ظهره. أراد أن يصبح فوراً هرماً كرجل عمره مائة عام. ألقى نظرة أخرى على المرأة الميتة. لم يكن هناك ما يبعث على الخوف. بل على العكس، كان وجهها لطيفاً، ناعماً كما كان. أغلق بيده الثابتة عيني الجسد الميت نصف المغمضتين. ثم قفز إلى الشارع، وأعلم السيدة العجوز من جيرانها. اندفع الجيران إلى منزله. أرسلوا عليّاً إلى المصنع. لقد أصبح متآلفاً مع الموت. وفي الوقت الذي كان فيه يركب القارب متجهاً إلى المصنع، أصبح متآلفاً مع الموت.

وجنباً إلى جنب، وهما يعانقان بعضهما، كانا مستلقيان في نفس اللحاف. وفور أن دخل جسد أمه، أخذت طبيعة الموت الطيبة كل

إحساسها، وعواطفها، وليونتها. والشيء الوحيد حول الموت هو أنه بارد. ليس مرعباً كما كنا نعرف. أجل، كان بارداً، هذا كل شيء.

واستمر علي، أياماً عديدة، بالذهاب إلى الغرف الفارغة في المنزل. واعتاد أن يجلس، في المساء، دون إضاءة، يصغي إلى الليل. كان يفكر في أمه. لكنه لم يستطع البكاء.

اقتربا من بعضهما، ذات صباح، في غرفة الطعام. كان هناك السماور، موضوعاً على الطاولة البلاستيكة، هادئاً ولامعاً. كانت الشمس قد تجمدت على ذلك المصباح النحاسّي الأصفر. وهو يحمله من كلتا أذنيه، حمله ووضعه في مكان لا تراه فيه عيناه مرة أخرى. ثم انهار على كرسي، وكما المطر، بكى وبكى وبكى بصمت. ثم، لم يعد السماور يصدر بخاراً أبداً في ذلك المنزل.

في ذلك الوقت دخل إبريق " السحلب " المعدني حياة علي.

الشتاء أشد برودة، وضبابية حول غولدن هورن أكثر من استانبول. سيذهب هؤلاء إلى العمل في الصباح الباكر بعد أن يتكسر الطين المتجمد على الممرات الخربة، ومعلموا المدارس، وتجار الأغنام، واللحامون المعتادون على الاستراحة فترةً أمام

المصنع، يريحون ظهورهم على جدار المصنع الضخم ويشربون " السحلب" المزين بمسحوق الزنجبيل والكمون .

يحملون أكواب " السحلب" بأيديهم المبدعة المختبئة داخل القفازات الصوفية، والأنوف المصابة بالأنفلونزا، والأدمغة المملوءة بالإضراب، والتي يصدر منها البخار كالسماور النحاسي، وعمال المصنع الملوحون بالسمرة، وأساتذة المدارس، وبائعو الأغنام، وفي بعض الأحيان أطفال المدارس، يريحون ظهورهم أمام حائط المصنع الضخم،ة وهم يرتشفون ببطء " السحلب" المزين بما كان استمراراً لأحلامهم التي لا تنتهي .

* * *

صباح الدين علي

ولد صباح الدين عام ١٩٠٦ . وهو قاص شعبي وروائي في عهد الجمهورية، أكمل تعليمه في معهد إعداد المدرسين في استانبول عام ١٩٢٦ وأرسل إلى ألمانيا مدة عامين. عندما عاد إلى تركيا، عمل مدرساً للغة الألمانية في عدد من المدارس. توفي عام ١٩٤٨ عن عمر يناهز الاثنين والأربعين عاماً.

بدأ صباح الدين حياته الأدبية بالشعر ثم تحول إلى كتابة القصص القصيرة والرواية. كان يتمتع بمهارة وصفية مميزة تظهر على نحو جلي في قصصه القصيرة أكثر من رواياته. نشرت قصصه القصيرة في العديد من الصحف المرموقة

والمجلات في تركيا. واستلهم موضوعاته من حياة الناس في الأناضول بشكل عام ومن القرويين على نحو خاص. كان يرسم صورة طبيعية في موضوعاته، ويعرف كيف يضيف عنصر المأساة لإظهار حقائق الحياة القاسية. وقصة "السيدة غراموفون"، الموجودة في هذه المجموعة، تشرح بعض الصفات المميزة لكتابات صباح الدين علي.

السيدة غراموفون

صباح الدين علي

لم يمض ما يقرب من سنة حتى وقعت الفتاة بين يدي عظيم. وذاعت شهرتها في أرجاء قونيه بين عامة الناس في تلك المدينة، وراحت أوراق النقود الخضر تملأ محفظة عظيم.

كانت لا تزال في حدود العشرين من عمرها؟ كانت ماهرة في الرقص أكثر بكثير من أي راقصة عندها خمسة عشر عاماً خبرة احترافية في الرقص. كانت تستطيع غناء كل أنواع الغناء بسرعة دون تلكؤ، حتى الأغاني الصعبة منها. ويا لصوتها المؤثر الذي كانت تملكه!.... وبسبب هذا الصوت راح الناس يشيرون إليها بالسيدة غراموفون. وبقي اسمها الحقيقي مجهولا. وقلة من الناس كانت تعرف من أين أتت. وبمتابعة لغتها السلسلة جداً، يستنتج المرء أنها

تعيش مع شخص مثقف في المدينة يرعاها. كانت المرة الأولى التي تذهب فيها إلى ناد ليل منذ عامين، في ميرام. كان يرافقها حينها شاب من ديري كوي. وبعد ذلك بشهر أو شهرين، أصبحوا يرونها برفقة ذلك الشاب. وفي ذات ليلة قتل الشاب في شجار. منذ ذلك الوقت، وكأي فتاة عزباء مشردة ليس لديها نصير، استقرت بين يدي عظيم. لم تكن عظيم تجهل هذا الكنز الذي لا ينفد الذي وقع أمامها. قامت قبل كل شيء باصطحاب بالفتاة إلى خياط شهير، ألبسها كفتاة موضة، واشترت لها زوجاً من الأحذية لهما إبزيمين، وجعلتها ترتاح مدة أسبوع أو عشرة أيام. ثم راحت ترسلها إلى العديد من النوادي الليلية مقابل دفعات، تبلغ ثلاثين ليرة عن كل ليلة، أو أربعين، حسب وضع الزبون، بل وتصل إلى مئة ليرة. وخوفاً على الفتاة أن تفر مع أحدهم، لم تكن ترسلها وحدها إلى هذه المهمات. كانت ترسل معها في كل مرة، حارساً مسلحاً من بين رجالها.

وكان الشباب يبيعون حلي أمهاتهم، أو منازلهم القديمة في الأحياء العربية، ويملأون جيوبهم بالنقود، ويمضون مباشرة إلى

عظيم، ويطلبون منها حجزاً مسائياً لحفلة السيدة غراموفون من أجل الرقص والموسيقا.

كانت الراقصات والمغنيات المحترفات عجائز. ومن يقدر الغناء أو الرقص، يعرف أنه كي تكون الفتاة سيدة في هذا المجال يجب أن تمضي فترة تمتد من خمسة عشرة إلى عشرين عاماً، وضمن هذا الإطار الزمني، حتى الوجه الجميل سيصبح فاسداً يستحق تخبئتة تحت غطاء عريض وسميك. وعلى نور الشمعة والمصابيح الباهتة، لا تكون لوجوه أو أعمار هذه السيدات أهمية، وأكثر من وجوههن، يكون مركز الاهتمام على سيقانهنّ وأجسادهن اللتي تدور وتتلوى وتستدير بتناغم بطرق عديدة.

ولكن السيدة غراموفون ......، حتى وهي في عمر مبكر، كانت متميزة عن الأخريات. فهذه الفتاة الفاتنة ترقص بشكل أسرع وبخبرة وفنٍ أكبر، وتغني حتى أسرع الأغاني بسهولة، كأنها تتحدث إلى الجمهور، هي ترقص رقصة الراكي ناظرةً إلى عيني الشخص المعني وتبتسم له. وكي تحظى باستحسان هذه الفتاة، يستعد الناس لخوض معارك ضارية تصل إلى القتل. وتحرص عظيم على انتقاء الزبائن الأذكياء وحسني السلوك للفتاة، فدائماً

يقع شجار ما، تستخدم فيه الأسلحة النارية، ويتورط فيه أفراد . هذا يحدث بغض النظر عن المكان الذي ستذهب إليه لأداء وصلتها . وتعرف الفتاة السيئة السلوك كيف تخرج سليمة دون أن تصاب بخدش من هذه الشجارات . وما إن تتصاعد حدة الأحداث ويتناسى المتشاجرون من أجلها وجودها، حتى تنسحب بهدوء بعيداً مع حارسها الذي لم يشترك في الشجار . يقفزان إلى السيارة التي تنتظرهما أمام الباب، تشق طريقها في البستان، وتذهب مباشرة إلى زوج أخت عظيم " ينيج" .

للسيدة غراموفون عادة غريبة . فالمرء الذي تلتقي به مرة واحدة، لا تتذكره عندما تراه في المرة الثانية . وتدعي أنها لا تتذكره، وفي الواقع هي لا تتذكر، حتى أولئك الذين باعوا وأنفقوا كل ما يملكون من أجلها .ويقوم الشخص المعني بمحاولة تذكيرها : " هل تستطيعين أن تنسيني يا حبيبتي . هل تذكرين عندما خرجنا إلى الحديقة في سيلليلي حيث جرحني علي الصغير بسكين وبقيت في المشفى أربعة أشهر ." وكانت تجيب ببراءة شديدة :" آسفة، يا سيدي . لا أتذكر، ببساطة ." وأن نقول إنها كاذبة ليس عدلاً .

كـي تكـسب مكانـاً في قلـب الـسيدة غراموفـون، لا يكفـي أن تستأجرها ليلةٍ واحدة للغناء والرقص، والشخص الذي تبقى معه لليلتين، عليه أن يكون إما غنياً جداً أو شاباً خارقاً كالأسـد . ولكـن كان هناك شخص واحد فقط لم تنسه فترةً طويلة .

كان أحد أصدقاء عظيم القـدامى ويـدعى حـسن آغـا وهـو مـن الروملي . عندما تخرج من محطة قطار في قونيه، تقترب منك جمهـرة من العربات التي يجرها حصانان . ربما يملك هذا الرجل ربع هـذه العربات . وكلما كانت عظيم تحتاج إلى عربة، كانت ترسل في طلبه . وهو يعرف أن المشاكل يمكـن أن تنـدلع عـاجلاً أو آجـلاً، ويرسـل إليها الحوذي مراد الشاب القوي .

ويقوم هـذا الـشاب، دون أن ينبس ببنـت شـفة، ودون أن يلقـي نظرة إلى الخلف، بأخذ العربة إلى مكـان الوصـول . لا يـدخل، حتـى لـو نـادوه . وبـاقتراب الفجـر عنـدما تنتهـي جلـسات الـرقص والموسـيقا، أو في حالـة وقـوع حـادث مـا مؤسـف، وبـين النـاس الصارخين ودوي الأسلحة، يسرع مراد ليمسك كيس العلف، وفي اللحظة التي تثب فيهـا الـسيدة غراموفـون خـارج الحديقـة . يجعـل الخيول تعدو إلى المدينة .

لا تقوم السيدة بتوجيه كلمة واحدة إليه، ولا يوجه إليها بدوره كلمة واحدة. ورغم مرور أشهر وهو يأخذ فيها السيدة إلى العديد من الأماكن بحصانه الكستنائي اللون وعربته الخفيفة، ورغم الرصاص الذي كان يلاحقهما في بعض الأحيان من خلفهما، كان مراد يوصلها بسلام وأمان إلى المنزل، ومع ذلك لم ير أحدهما وجه الآخر..

وذات مساء، عندما مرض مراد وحل مكانه حوذي آخر، قفزت السيدة غوموفون من العربة وأصرت على عدم الذهاب. لم ينفع معها الرجاء ولا الصراخ. وبعض مرور بضعة أيام، والتزاماً منها للثناء على الفتى، أخبرت عظيم مراداً عن هذه الواقعة، وما كان منه إلا أن هز كتفيه مشيراً إلى أنه لا يبالي.

خرجوا ذات يوم إلى متنزه عام يقع إلى الجانب الآخر من ميرام. وبينما كان يتمشى في الداخل بين أشجار التوت، والموسيقى تعزف ويتعالى صداها في الهواء، والملاعق الخشبية تقود الموسيقا من خلال غناء ورقص النساء الذي يشبه وقع حوافر الخيل وهي تعدو على طريق مكسي بالمعدن، حدث الأمر المعتاد. كان هناك صراخ وشتم متبادل. تبع هذا صوت بعض العيارات النارية من أسلحة. استدار

مـراد برأسـه نحـو البوابـة حتـى يـرى مكـان المـرأة وحارسـها عنـدما يفران مـن المتنـزه . وبـدل ذلـك، سـمع صراخـاً مـن المـرأة قادمـاً مـن الداخل .

" مراد ! تعال بسرعة رجاء . لقد أصبت ."

قفز الفتى من مكانه ووصل إلى البوابة . حيث كان الشجار في الداخل مستمراً . كان هناك بعض الأشخاص يمسكون بالمرأة وهم يحاولون دفعها إلى منزل الحديقة . عندما رأت مراد، مدت المرأة يديها نحوه . نظرت إليه للمرة الأولى، فرأت في عينيه أشياء عديدة . وبسرعة أخرج مراد مسدسه الضخم من جيبه وأفرغه في هؤلاء الناس . وبينما كانوا لا يزالون مصدومين من هول المفاجأة، أمسك مراد بالمرأة وفرا معاً . وقفزا إلى العربة وقادها نحو الاتجاه المعاكس من تلك المدينة، متوجهاً نحو الجبال .

وبما أنه لم يكن يألف المنطقة ولا يوجد أحد يمكن أن يقدم إليه الملاذ والمأوى، قبض عليه حرس الحدود في غضون أيام . أودعوه السجن وأدخلوا المرأة إلى المشفى . وأول شيء قامت به السيدة غراموفون عندما خرجت من المشفى أن سألت عن مراد . وبما أن

أحد ألأشخاص الـذين أطلـق علـيهم مـراد النـار قـد تـوفي، أعطـى حكماً مخففاً بالسجن اثني عشر عاماً .

وبعد ذلك اليوم، لم تذهب المرأة إلى صـالات الـرقص العامـة ولم تعد ترقص وتمسك بالملاعق الخشبية للـرقص، ولم يعـد أحـد يـسمع صوتها المؤثر النـاعم . في البدايـة ذهبـت تعـيش مـع شـخص كبـير في العمـر كخليلـة لـه . وعنـدما تخلى عنهـا هـذا الرجـل، راحـت ترتـاد المواخير . وفي كل يوم ثلاثاء، كانت تذهب إلى السجن لرؤيـة مـراد . كانـت تعطيـه النقـود وتحمـل إليـه أشـياء مثـل " الـسجائر، إلـخ .... بقيت محافظة على الفتـى الـذي لم يتـوان عـن قتـل رجـل مـن أجلهـا، وراحت تبيع جسدها وتنفق المال الذي تكسبه بتلك الطريقة، رغـم أن أحدهما لم يكلم الآخر بكلمة واحدة أو حتى كلمتين . وربـما مـن أجل هذا الفتى فقط استمرت في العمل .

* * *

أورهان كمال

كاتب قصة قصيرة وروائي شهير، ولد في سيهون عام ١٩١٤. ظهرت موهبته عندما كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية لأن والده تم نفيه إلى سوريا بناء على خلفيات سياسية. عندما عاد إلى أضنة عام ١٩٣٢، كان عليه أن يكسب عيشه عاملاً في مصانع القطن، وفيما بعد أصبح موظفاً. ومن عام ١٩٣٩ وما بعد بدأ الكتابة في العديد من الصحف والمجلات. ورغم أن مهنته ككاتب بدأت بالشعر، إلا أنه صنع اسمه في حقل الرواية والقصة القصيرة. واستمد موضوعات أولى روايتيه القصيرتين من طفولته وشبابه، وجعلته هاتان الروايتان مشهوراً. أصبح روائياً ناجحاً جداً من التجارب الحياتية المرة والقاسية والعامة والصراع من أجل العيش. وبما أنه عاش حياة رجل عادي تحت شروط اقتصادية مناوئة، إلا أنه لم يكن يجد صعوبة في إيجاد

موضوعات أو أبطالٍ أكثر أهمية من الشخصيات الحياتية والموضوعات التي في متناول اليد، تاركاً الشكل وتعقيدات اللغة في المستوى الثاني.

في رصيد أورهان كمال العديد من الروايات المنشورة إضافة إلى مجموعة من القصص القصيرة. ولقد نشرت معظم أعماله أكثر من مرة واحدة. كما اقتبست بعض رواياته للسينما وحوّلت بعض رواياته إلى مسرحيات تم تقديمها على خشبات المسرح. وعناوين كتبه المنشورة الأحدَ عشرَ تعد مؤشراً نحو موضوعات يتعامل معها عادةً.

حاز أورهان كمال على عدد من الجوائز الأدبية عن بعض أعماله الهامة. واختير كأكثر كتاب القصة القصيرة شعبية في عام ١٩٤٨. وحاز على جائزة سيد فايق للقصة القصيرة عام ١٩٥٨. واختارته جمعية عشاق الفن كأفضل كاتب مسرحي للعام ١٩٦٧.

وقصة "تومسون الأسد" التي تضمّها هذه المجموعة تبين كيف اضطر الكاتب نفسه إلى قطع دراسته في السنوات الأولى من حياته بسبب ظروف خارجة عن إرادته، وكيف عمل لكسب شهرته في الحياة رغم إعاقته الكبيرة.

تومسون الأسد

أورهان كمال

ارتدى حذاء والده العسكري الضخم، وغطى رأسه بقلنسوة مدببة انحدرت حتى أذنيه، ومن عنقه تدلت سلة بائع جوال مثبتة بخيط، وغادر منزله. اجتاز الشارع بحذر يميز رجلاً متزوجاً قلقاً، عنده قبيلة من الأطفال. وكالعادة، وضع سلته على زاوية الشارع قرب حانوت لبيع السجائر.

وماذا تعتقد أنه أخرج ليبيع؟ هل سيصبح رجلاً غنياً؟ دبابيس، بوالين من مختلف الألوان، أقلاماً، والقليل من الأشرطة الزرقاء، وأزراراً، وسكاكين صدئة، وظروف، إلخ. وكانت كيهان على حق عندما سألته: " بحق الله لماذا تركت المدرسة؟"

هل غادرها بملء إرادته، أتعتقد هذا؟ هل فرت أخته مع زوجها، وخضعت والدته لعملية جراحية، وطرد والده إلى الشارع

من مكتب العائدات . أم، هل تعتقد أنه ترك المدرسة؟ لقد حصل على الكثير من العلامات أكثر من كيهان، بل حتى أكثر من يرو ! كان شيناسي، وكيهان، وإيرول يخططون ليصبحوا مهندسين، وابن القاضي يريد أن يصبح محامياً، بينما أرادت نازان السمراء وهو نفسه أن يصبحا طبيبين .

ولكن هل يكون هذا ممكناً؟

نظر بقلق إلى الشارع المحتشد الذي تسير فيه السيارات بخط لا ينقطع .

قد تستطيع نازان أن تكمل دراستها .

واعتادت نازان، بشعرها البني وعينيها الزرقاوتين أن تجلس قربه في غرفة الصف . لم تكن تتباهى أبداً أنها ابنة طبيب وكانت تشاركه الشكولاتة . ولكن ماذا عن آيلا، ابنة المتعهد؟ ليس بإمكان أحد الاقتراب منها لأن معها سيارة كاديلاك . وذات مرة، وبحالة غضب، نعتته بالـ " قذر" الذي " يرتدي حذاء ضخماً ."

أطلق تنهيدةً .

قالت" الذي يرتدي حذاءً ضخماً" . أجل، كان ينتعل حذاءً ضخماً لكنه لم يكن يخفي هذا . أكان هذا هجوماً؟ هل كان يملك حذاءً أفضل من الذي يرتديه؟

لم يكن يحب آيلة أبداً . أما بالنسبة إلى نازان، فكان يحبها كروحه . كانت تأتي إليه بابتسامة مرسومة على عينيها الزرقاوتين وهي تقول :" لماذا أنت مستغرق في التفكير، يا أخي؟ أتشعر بالجوع؟ هل تشعر بألم في مكان ما؟ أو هل قالت آيلة شيئاً ما؟"

يأتي إليه حشد من التلاميذ ويقفون أمام سلته .

" ما هي الأخبار، أيها البائع؟"

" هل تظن أن بيع البسطة سيجعل منك مليونيراً؟"

" هذا مصير من يترك المدرسة . أترى !"

كيهان، وشيناسي، وإيرول، والعديد من الآخرين ..... لم يجب . لم يشعر أنه يجب أن يجيب .

قال إيرول :" هيا أيها الأولاد، سنتأخر عن المباراة !"

وذهبوا وهم يثرثرون من الطريق الذين أتوا منه، وهم يرتدون معاطفهم الجديدة، وأحذيتهم اللماعة، وحقائبهم المدرسية .

بقي البائع يراقبهم لفترة طويلة. بعضهم سيصبح طبيباً، وبعضهم محامياً، وبعضهم مهندساً!

وماذا عن أحمد نفسه؟ أجل، ماذا عنه؟

أحس كأنه يرفس بسطته. ماذا لو استطاع أن يقفز إلى قارب بخاري له ثلاث مداخن، ويترك السلة وبقية ألأشياء مع والده، ووالدته وأخته الصغيرة!

" مرحباً يا نوري!"

نظر وراءه.

هذا جمهور... جمهور الأسمر. القائمة رقم ١٢٤. لم يكن وحشاً كالآخرين.

أجابه: " مرحبا!"

" كيف حال العمل؟"

"دعنا لا نتحدث حول هذا. قل لي، هل ذهبت إلى السينما؟"

" يوم أمس."

" ماذا كانوا يعرضون؟"

" انتقام الرجل ذي القناع الحديدي ."

" أكان فيلماً جيداً؟"

"ماذا تقول، يا أخي؟ كان فيلماً جيداً !"

" لنستمع إلى قصته" .

وضع جمهور حقيبته الخشبية بشكل عامودي على الأرض وجلس عليها . وجلس البائع القرفصاء على الأرض . وتلونت وجنتاه السوداوان، والشاحبتان باللون الوردي . أراح نفسه من الهم وراح يقترب من الرجل المتزوج . كان كله أذاناً صاغية، ويشع من عينيه ألق بلون الخضرة . بالنسبة إليه، انمحى الكون . ،أخيراً العصابة مع القناع الحديدي اقتربت من توم ميكس، كلاهما معاً جنباً إلى جنب . والحق يقال، تومسون الأسد، المعاون الذي يضحي بنفسه من أجل الرئيس ميكس موجود هنا في السجن . وحتى يكمل مهمته تلك بنجاح التي حددها له الرئيس ميكس، كان عليه أن يقوم باقتحام بار منفرداً يقع في شارع X-13 . قال الرئيس ميكس :" يا تومسون، لا احد غيرك يستطيع القيام بهذا العمل !"

وقال له : " أجل، أجل !" ودخل في شارع X-13 . كان أفراد العصابة الذين يرتدون المناديل حول أعناقهم، يجلسون على كراس مرتفعة، ويشربون الخمر . أشهر مسدسين من جيوب بنطاله ذي الساقين الضيقتين .

" هيا بنا !!!"

وبالنسبة لأفراد العصابة الذين يرتدون مناديل حول أعناقهم والذين هجروا عصابة الرئيس ميكس، أشرقت الشمس أخيراً . وبأيديهم المرتفعة، غادروا أماكنهم . ووقفوا وجهاً لوجه أمام تومسون الأسد . وتركوهم يقوموا بالحركة الصغيرة، إذا ما تجرئوا على فعل ذلك .

دفع بهم كلهم بين الحشد المتحمس الذي يهتف ، أخرجهم من البار وقادهم إلى منزل محبوبته الجميلة نيللي . كانت نيللي تراقب من النافذة . وعندما رأت تومسون، صرخت كمجنونة وأرسلت إليه قبلة في الهواء .. وكل السيدات اللواتي كن يراقبن تومسون أمطرنه بوابل من القبلات . هل هناك من يمكن مقارنته بتومسون؟ لا أحد يستطيع أن يمتطي صهوة حصان كما يفعل هو، أو يقود

سيارة بالطريقة التي يقودها . تومسون، تومسون الأسد يستطيع أن يطرح أرضاً خمسة عشر شخصاً بضربة واحدة !

حتى بعد أن غادر جمهور، لم يكن هناك شيء يمكن أن يساعده في التخلص من الإحساس من كونه تومسون الأسد مجسداً : ولا حتى سيارات الأجرة بألوانها المختلفة التي كانت تخترق الشارع، ولا الإنسان، ولا منظر كيهان والآخرين الذين سيصبحون أطباء، أو محامين، أو مهندسين . سيقفز ذات يوم إلى مركب بخاري لديه ثلاث مداخن، ويذهب إلى البعيد إلى مكان يستطيع فيه أي شخص أن يصبح تومسون الأسد ! وربما تذهب معه أسرة نازان . ماذا لو كانت هي محبوبته، وكان هو تومسون الأسد ! ماذا لو يقود أمامه أفراد عصابة يرفعون رؤوسهم أمام الرئيس ميكس، ويأخذهم إلى منزل أسرة نازان !

" هل معك أحجام أكبر من هذه الدبابيس، يا بني؟" وتبعثرت أفكاره تماماً . ورغم أن لديه أحجاماً أكبر إلا أنه قال :

" كلا، لا يوجد لدي ."

" كيف تقول إنه ليس لديك؟ ها هي ذي"

" عندما أقول ليس لدي، يعني ليس لدي !!"

" غريب، تتحدث هكذا إلى شخص بعمر جدك. ألا تخجل من نفسك؟"

وهذا ما أغاظه. أمسك بالرجل من طوقه وصرخ به قائلاً:

" أنظر إلي! هل تعرف من أنا؟"

........................؟

" يدعونني بتومسون الأسد، مساعد الرئيس ميكس!"

وبحذائه العسكري الضخم، وبقبعته المدببة التي تغطي أذنيه.........

يتذكر المرء صوصاً تعلم لتوه كيف يصيح.

* * *

عزيز نيسن

يُعّد عزيز نيسن أعظم كاتب ساخر وفنان مشهور على مستوى العالم. ولد في عام ١٩١٥ لأسرة متوسطة في استانبول، كان ضحية سلسلة من المحن منذ نعومة أظفاره. بعد أن خدم ضابطاً في الجيش فترةً من الزمن، أجبر على أن يكسب عيشه بالعمل في العديد من الوظائف، بما فيها بائع صحف متجول.

كان نيسن كاتباً متعدد الجوانب بلغ عدد كتبه أكثر من ثمانين كتاباً في الشعر، والمسرح، والقصة القصيرة. أولى نجاحاته ككاتب تعود إلى مسرحياته التي عرضت على مسارح أمريكا، وألمانيا، ورومانيا، والعديد من المدن الأخرى في العالم. وفيما بعد، ساعدته قصصه على الظهور كأستاذ السخرية على مستوى العالم. وكتب ما يزيد عن ألفي قصة

قصيرة. وترجمت قصصه إلى أربع وعشرين لغة في العالم، بما فيها الأردية والبنجابية. وتجاوز عدد نسخ كتبه المنشورة المليون، وهذه ميزة لا يضاهيه فيها أي كاتب تركي آخر.

استخدم نيسن لغة بسيطة جعلت كتاباته تصل إلى الرجل العادي. ودارت موضوعات أعماله حول المشقة، والحرمان، والظلم التي يعاني منها الرجل العادي نتيجة النظام الاقتصادي المشوه الذي تستحوذ فيه الطبقة الغنية على السلطة وتتمسك بها، وتجعل الغني يزداد غنىً والفقير يزداد فقراً. إنه بطل عظيم إنه بطل عظيم لحرية الصحافة، وحقوق الإنسان، والموظفين أصحاب الدخل المتدني، والأطفال الفقراء الذين يعانون من الإهمال وسوء المعاملة. رجل أمضى سنوات طويلة من حياته في صراع من أجل مورد رزقه، أصبح مليارديراً قبل وفاته بعقدين عام ١٩٩٤. وأوصى بكل دخله من كل كتبه إلى صندوق تنمية نيسن التي كانت تقدم للأطفال الفقراء والأيتام كل التسهيلات الضرورية من منازل وتعليم مجّاني حتى التخرج.

حصل نيسن على جوائز فخرية قيمة، سواء في الوطن أم على المستوى الدولي. وبسبب كتاباته اليسارية، أمضى ما يزيد عن اثني عشر عاماً في السجن، بمدد مختلفة.

الخدمة الوطنية

عزيز نيسن

ساد السجن اضطراب كبير . ووصلت الأخبار الأخيرة إلى كل زنزانة وإلى كل ثكنة .

" اسمعوا ! يقال إن كرافتي إحسان قد اعتقل مرة أخرى ."

" هيا، بلا إشاعات من فضلك ."

" لستُ من صلب أبي إذا كنت أكذب ."

" يا صديقي العزيز، كان قد أقسم على ألا يشترك في هذه الأنشطة مرة أخرى ."

" أجل، ومنذ ذلك الحين وهو يدير مقهى شاي ."

"لكني لا أصدق . هذا كله يبدو لي مجرد ترهات ."

" كلا هذه ليست مجرد ترهات يا صديقي العزيز . هذه حقيقة، حقيقة صافية وبسيطة . لقد أحضروه هذا المساء إلى هذا السجن . رأيته بنفسي وهو يدخل من البوابة ."

" ولكن يا صديقي، من هذا كرافتي إحسان؟"

" أنت لا تعرفه . كان هنا فترةً طويلة قبل أن تأتي أنت . ولكن المسكين لا بد أنه نسي الطريق إلى هذا السجن . وانظر إلى هؤلاء الناس عديمي القلب الذين قاموا بتطويقه بالحبل في الداخل مرة أخرى" .

" لكنه رجل حاد الذكاء . لا يستطيع أحد أن يهزمه ."

بقي كرافتي إحسان في غرفة منفردة بضعة أيام . ثم تم ترحيله إلى ثكنة عامة . ويعرفه نزلاء السجن تمام المعرفة . وتحلقوا كلهم حوله . وراحت الكلمات ترشق من كل حدب وصوب .

" نحن آسفون من أجلك، يا أخانا إحسان ."

" مبروك، أيها الأخ إحسان ."

" ماذا حدث هذه المرة، يا عزيزنا إحسان؟"

كانت هناك حلقة شاي . رمى إحسان بقطعة نقدية من فئة المائة ليرة في صينية فتى الشاي . ووصل المزيد من الشاي وشرب كل واحد منهم كوباً . جلس نوري قبالة إحسان من الفئة ب الذين يمضون ثمانية أعوام في السجن في قضية اختلاس . وهو يحمل سبحة في يده، كان نوري يرتدي معطفاً قديماً وينتعل خفين . لا بد أن عمر إحسان يبلغ الخمسين عاماً أو أقل . بدأ يروي الحادثة لنوري كأنه لا يوجد أحد سواهما :

يا عزيزي نوري، لن تصدق ما سأقوله لك . حتى أنا نفسي أشك في كل ما وقع لي أهو حقيقة أو مجرد حلم . شاب شعري وأنا أشارك في هذه الأنشطة ولكن ما حدث معي هذه المرة لم يحدث لي سابقاً أبداً . لا أدعي أن الشرطة اعتقلتني وأنا أصلي في الجامع، لكن مهما كان الأمر الذي حدث معي فهو أكثر سخرية من هذا . هل تعرف ماذا كانت جريمتي؟ الخدمة الوطنية !

كنت أدير مقهى شاي صغير . وفي ذات يوم، جاء إلى المقهى شرطيان يرتديان الملابس المدنية وطلبا مني مرافقتهما إلى قسم الشرطة . أعرف كل رجال الشرطة شخصياً، لكن بما أن هذين

الشرطيين هما من الجيل الجديد، فلم أعرفهما . وبما أني لم أرتكب جريمة في حياتي، قلت في نفسي إنه لا داعي أن أتحدث مع شخص لا أعرفه . وهكذا رافقتهما . وهناك وجدت الرقيب حيدر الذي كان على أيامنا وهو يعمل بصفة مفتش مساعد . وبما أنه كان مصاباً بحوَلٍ طفيف في عينيه، كنا نلقبه بـ " مسيو" - " الحلو، الببغاء" . كان حلواً في الاسم فقط . أما مذاقه، فكان أقسى من البرد القارس . وما إن رأيته حتى حييته، وقلت :

" لقد استدعيتني، يا سيدي . ما هي أوامرك لي؟"

" تعال يا إحسان، اجلس" .

فهمت . لا بد أنه يوجد شيء ما خاص، وإلا لماذا دعاني إلى الجلوس؟ حيدر ميثهو الذي أعرفه يرحب بك بالرفس، والصفع، وما إلى ذلك من القدح والذم والكلام البذيء . قلت بعدما جلست :

" أنت تعلم، يا سيدي، أني تركت هذا العمل منذ زمن طويل . لقد تخليت عن كل مهاراتي القديمة ."

" لقد استدعيتك يا إحسان لأني أريد شيئاً منك ."

حيرني لأعرف ماذا يمكن لشخص مثلي أن يقدم لمساعد مفتش في الشرطة؟ لقد دفعت حصة كل شرطي منذ زمن طويل . وما تبقى لدي من المال استخدمته كي أفتح مقهى الشاي حتى أعيش حياة محترمة . قلت له :

" يا سيدي، أتذكر المرة الأخيرة التي عرضت فيها مهارة يدي، كنت أنت من ساعدني للخروج من تلك المشكلة . باركك الله . ومرة ثانية، أقسمت أمامك أنت أن لا أتورط في هذه الأعمال . كان هذا عندما دفعت كل قرش مستحق لك لأنه حصتك . وتم التسديد للمحاسبين القدامى منذ زمن طويل . فما الذي تطلبه مني الآن؟"

" ألم تفتح حساباتك القديمة ؛ استدعيتك اليوم لأني أريد منك بعض الخدمة الوطنية ."

إن الخدمة الوطنية كان يعني في فهمنا الخدمة الإلزامية العسكرية التي على كل مواطن تأديتها كواجب عليه . اعتقدت أنه يطلب مني الانضمام إلى القوات مرة أخرى للخدمة الإلزامية العسكرية . قلت محتجاً :

"ليباركك الله يا سيدي، لقد أديت خدمتي الإلزامية منذ زمن طويل . وبدل أن أخدم سنتين، خدمت ست سنوات كاملة بالبحرية . وهذه الفترة لا تتضمن الفترة التي كان علي أن أمضيها في سجن البحرية عن جريمة الفرار . وعلى كل حال، تجاوز عمري الآن الخمسين عاماً . فكيف تطلب مني الآن أن أؤدي الخدمة الوطنية؟"

قدم إلي «مسيو» حيدر، وأنا أتحدث إلي، لفافة تبغ وطلب لي قهوة . والآن أستطيع أن أخمن أن هذا السيد يريد أن يبتز مني بعض المال باسم الخدمة الوطنية ثم يبلعها . منذ أن بدأ المقهى يدر علي عوائد جيدة، وضع الجميع أعينهم على ما أجنيه . قلت متابعاً كلامي" .

" يا سيدي، إذا كنت تعني بالخدمة الوطنية شيئاً آخر، فأعلمني المزيد من التفاصيل أرجوك . وسأقوم طواعية بإطاعة أي أمر يأتي منك . أرجو أن تعدّ المقهى مقهاك" .

" لقد أسأت فهمي، يا إحسان . لم أكن أعني بالخدمة الوطنية الخدمة الإلزامية العسكرية . أردت أقدم إليك فرصة لتأدية خدمة

وطنية من نوع آخر . حكومتنا بحاجة ماسة إلى خدماتك . وأنا متأكد، بمشيئة الله، أنه سيكون لك اسم كبير عند حكومتك" .

" لماذا هذا المزاح، يا سيدي؟ ومن أنا حتى أقدم خدمة للحكومة؟ هل أصبحت الحكومة بعظمتها تعتمد على نشال مثلي؟

" هذا بالضبط ما تريده الحكومة، يا عزيزي حسان . ما تفعله الحكومة لا يمكن لأي أحد أن يفهمه . كل هذا يعتمد على الوضع . هناك أوقات أصبحت فيها الحكومة تعتمد على المواطنين . وهذا عندما تحتاج إلى خدمات وطنية من أشخاص مثلك" .

" لقد استدعيتني يا سيدي . من أجل الحكومة ومن أجل أرضنا، وأنا عل استعداد لأقدم لهما حتى عنقي . لقد استدعيتني وأنا مستعد للتخلي عن حياتي وأنا مستعد للموت ."

وقدم مسيو حيدر مشكلته بالتفصيل :

" ربما لا تعرف أن الوفد الأجنبي الكبير موجود في بلدنا هذه الأيام . يتضمن وفداً من أمريكا، وألمانيا، وفرنسا، ومن كل البلدان المتطورة . فيهم الأطباء، المهندسون، والأساتذة، والتجار، والخبراء من كل المهن . وهم هنا لتقييم كل المتطلبات الضرورية ولإعداد

خطة شاملة بغية تقديم المساعدة لهذه المدينة وفقاً لذلك. والمشكلة التي ظهرت هي أن كل دائرة حكومية زارها هذا الوفد، لم يكن راضياً عن أدائها. وسواء أكانت دائرة أحراج أم مصنعاً ما، لم يكن الأداء يبعث على الرضا. ولهذا السبب، شعرت حكومتنا بالإحراج الشديد بوجود الخبراء الأجانب. وبناء عليه قررت أن تجعل هذا الوفد يحب شيئاً في هذه المدينة. وبهذا الخصوص شعرت الحكومة بضرورة التعامل مع خدماتك. عليك قبول هذه الخدمة الوطنية، يا إحسان".

وصلت إلى نتيجة، وأنا أصغي إلى مسيو حيدر، أنه ربما، بعد أن خاب أملها من كل الجهات، قررت الحكومة أن تقيم معرضاً لجميع السارقين المحليين والنشالين للتأثير في الوفد حول وضعنا القومي في هذا الحقل. ومن أجل هذا المعرض شعروا بضرورة الحاجة إلى خدماتي. قلت له:

" فهمت ما ترمي إليه، يا سيدي. تريد منا أن نثبت من أجل مصلحة هذا الوفد أننا طورنا فن السرقة إلى أعلى المستويات من الحماية. وبعد أن يتأكدوا، يا سيدي، سواء وجد الوفد شيئاً آخر يستحق الثناء في هذا البلد أم لا، عليهم أن يقروا بذلك، طالما أن

المعني هنا هي السرقة، لا يمكن أن يضاهينا أي بلد في العالم بهذا. وأنا متأكد أن هؤلاء الناس سيتأثرون أيما تأثر بأدائنا في هذا الحقل خاصة".

" لقد فهمتني تماماً، يا إحسان. هذا هو الأمر تماماً. نريد أن نثبت لهذا الوفد أن شرطتنا ذات كفاءة عالية وأداؤها هو على أعلى مستوى".

" ولكن، يا سيدي، هذه مهمة صعبة للغاية."

" هي صعبة، دون شك. ولهذا السبب استدعيناك إلى هنا. والأمر عائد إليك لتساعدنا لأنّك كنت سارقاً في السابق، نشالاً معروفاً، وخبيراً في فن السرقة. سيعدّ هذا خدمة وطنية نشطة من طرفك."

سبب حوار مسيو حيدر لي ارتباكاً في ذهني. سألته:

" يا سيدي، وما هي المهمة بالضبط في كل هذه المسألة؟"

وشرح لي حيدر بالتفصيل خطته:

"سأعطيك عنوان الفندق الذي يقيم فيه الوفد. وستوافى بمختصر واف حول هوية كل عضو من أعضاء الوفد. وسيطلب

منك سرقة أشياء تخصهم بحيث لا تكون هناك قطعة واحدة مما وهبهم الله تترك في حوزتهم . وعندما يصرخون طالبين النجدة، سيهرعون إلينا . وسنؤكد لهم أن شرطتنا على كفاءة عالية، وعليهم ألا يقلقوا لأن شرطتنا ستعتقل السارقين في غضون خمس دقائق . ومن جانبك، ستعيد كل الأشياء المسروقة إلى الشرطة . وسيذهب الشرطة إلى الفندق فوراً ويعودون ومعهم الأشياء لردّها إلى أصحابها . وهؤلاء الأغبياء سيتأثرون جداً وسيمطرون رجال شرطتنا بأوسمة الشرف" .

عبرت له عن رغبتي في الاعتذار، قلت لمسيو حيدر :

" كلا ياسيدي . لن أتمكن من تأدية هذه الخدمة الوطنية . أولاً، لأني أقسمت أن لا أقوم أبداً بهذه الأشياء في حياتي مرة ثانية، وثانياً، لأني لم أعد أتعامل مع هذه المهنة منذ زمن طويل ."

" إحسان، يا بني، هل سبق لك أن رأيت ذنب كلب مستقيماً بعد أن أقسم ألا يفعل هذا؟"

" ولكن يا سيدي، هناك الكثير من الجيل الجديد من النشالين الماهرين . لماذا لا تمنحهم فرصة ليقوموا بهذه الخدمة الوطنية؟"

"في الواقـع، لا أثـق بهـذا الجيـل الجديـد أبـداً . فهـؤلاء التعـساء سـيكونون قـادرين عـلى سرقـة أشـياء ببراعـة فائقـة، ولكـن بـدل أن يسلموا ما سرقوه إلى الشرطة، سيبلعون كـل شيء . وبـدل اكتساب سمعة جيدة للشرطة، سنكسب سمعة سيئة . نحن بحاجة إلى أنـاس شرفاء مثلك، لصوص من منبت طيب ."

ورغـم رجـاءاتي المتكـررة وتوسـلاتي لإعفـائي مـن هـذه الخدمـة الوطنية . إلا أن ذلك لم يثن مسيو حيدر عن رأيه . قال لي :

" في هـذه الحـال لا تلمنـي بعـد ذلـك . إذا مـا رفـضت أداء هـذه الخدمة الوطنية، سأقوم بمهاجمة مقهاك . وأنـا أعـرف أن مقهـاك هـو وكـر للعـب القـمار وبيـع الحـشيش . فكـر في هـذا وخـذ قـرارك بعـد تفكير متأن ."

لم يعـد لـدي، بعـدما رأيـت كـل المنافـذ مغلقـة، أي بـديل غـير الموافقة . سألته حول مكافأتي . وغضب مسيو حيدر . وصرخ بي :

" ألم أقـل لـك إنهـا خدمـة وطنيـة؟ ألا تخجـل مـن طلـب مكافـأة مقابل خدمة وطنية؟"

" انظر إلي، يـا سـيدي . هـل تُقـدم خدمـة وطنيـة في الـشرطة دون أجر؟ هل يؤدي أعضاء التجمع الوطني لدينا الخدمـة الوطنيـة دون

أجر وعلاوات؟ للصداقة مكان خاص بها وللعمل الرسمي مكان خاص به، والواجب له مكان خاص به بينما للنكات مكانها الخاص بها، للخدمة الوطنية مكانها الخاص وللعلاوات مكانها الخاص ."

" حسنُ، في هذه الحال ستكون مكافأتك الاستمرار في العمل في مقهاك بكامل الحرية كلما شعرت بحاجة إلى ذلك . ولكن تذكر، في اللحظة التي تسرق فيها شيئاً يخص الوفد، أحضره مباشرة إلينا حتى نعيده إليهم على الفور كي نحرجهم ."

" حاضر يا سيدي ."

أعطاني حيدر عنوان الفندق . كما أراني أيضاً صور أعضاء الوفد ووصفهم لي بالتفصيل . وقال لي بعدها :

" حسنُ يا إحسان، ليكن الله لك سنداً ومعيناً . سنعلق كل آمالنا عليك . إذا نجحت في حرمان رئيس الوفد من ممتلكاته، لاشيء سيكون أفضل من هذا . إلى اللقاء ."

يا عزيز نوري . أنت تعرف تمام المعرفة أن فعل هذا بالنسبة إلينا أسهل من أكل الحلاوة . ذهبت بنفسي إلى الفندق، ووقفت أمامه . وعندما خيم الليل، خرج قليل من الناس . أخرجت مجموعة

الصور من جيبي . أجل، هؤلاء هم أنفسهم . وكان رئيس الوفد بصحبة زوجته . تقدمت نحوه من بين الحشد وجعلت صدري يلامس صدره لأتحسس فقط ما تحتويه محفظته . وفي المرة الثانيه جعلت صدري يلامس صدره، فكانت المحفظة في يدي . أحسست بالسعادة عندما علمت أنه رغم مرور زمن طويل على قيامي بالسرقة، إلا أن يدي بقيتا على براعتهما كسابق عهدهما . انسللت من هناك ولم أتوقف حتى وصلت أمام أقرب مصعد رأيته .عندما فتحت المحفظة، وجدت حزمة من أوراق نقدية بالية من عملة أجنبية مجهولة . وصدقني إني أقول هذا دون أن ألمس قرشاً واحداً، اندفعت إلى قسم الشرطة مباشرة . وما إن رآني مسيو حيدر، حتى ركض ليعانقني . قبلني على جبهتي عندما سلمت المحفظة إليه . قال لي :

" حسناً فعلت يا إحسان . لقد أنقذت شرفنا . كان رئيس الوفد هنا منذ دقائق . قلنا له مواسين إن رجال شرطتنا هم على كفاءة عالية في هذه الأمور . وأكدنا له أن محفظته سيتم العثور عليها يوم غد ."

" حسن يا سيدي . هذه هي نهاية خدمتي الوطنية . هل أستطيع المغادرة، من بعد إذنك؟"

" آخ . كلا، أيها السيد . ليس بعد . كيف لأداء واحد أن يخلق انطباعاً جيداً دائماً؟ ستجردهم من ممتلكاتهم عدة مرات ."

" أرجوك لا تجبرني، يا سيدي . أخشى أن تدمن أصابعي على هذا الفن، عندها سيكون من الصعب عليَّ السيطرة على نفسي ."

لم يوافق حيدر . وبدأت بسلب هؤلاء الناس دون رحمة أو شفقة . وفي أول فرصة سنحت لي، قمت بتمشيط كل جيوب رئيس الوفد، وجردته لا من محفظته فقط بل أيضاً من مفاتيحه، ومنديله، وقداحته، وسجائره، ومن كل الفراطة التي معه في جيب سرواله . كما سرقت منه حتى الوردة التي كانت تزين ياقة سترته . وهل تعلم أن هذا الغبي بقي ذاهلاً عمّا حدث معه؟ وكنت متأكداً أنه حتى لو فتقت ساقي سرواله وأحضرتها معي لما عرف . ثم، ولمجرد المرح فقط، أزلت كل أزرار سترته . وعندما كومت كل الأشياء أمام مسيو حيدر في قسم الشرطة، قال لي :

" حسناً فعلت يا إحسان . لقد انتصرت علي . لتكن مكاسب هاتين اليدين قانونية بالنسبة إليك ."

" يا سيدي، لو لم أشفق عليه، لتركته عارياً كما ولدته أمه ."

باختصار، يا عزيزي نوري، بقيت مدة خمسة عشر يوماً كاملة، وأنا أقوم بسلب ونهب كل أعضاء الوفد من الذكور والإناث قدر ما يحلو لي. وأقسم بالله، لو أردت ذلك، لاستطعت تجريدهم مثل جراح، حتى من كلاهم. ولن يكتشف هؤلاء المغفلون ما فعلت، حتى يقوموا بالتصوير بالأشعة السينية. وعندما طلبت من مسيو حيدر إذناً بسرقة كلى رئيس الوفد على الأقل، ضحك من أعماق قلبه. ومرة أخرى، ما إن سرقت كل الأشياء من حقيبة إحدى أعضاء الوفد كانت تحملها بيدها. لم تعلم الشرطة بذلك. اتصل بها شرطي هاتفياً وسألها فيما إذا أضاعت شيئاً. أجابت بالنفي. وقال لها الشرطي إنها فقدت شيئاً. وبعدما راحت تفكر، حصل على الجواب:

" آه أجل، لقد سرق كل شيء كان في حقيبتي."

"وهل كان في حقيبتك منديل أحمر؟"

" أجل، كان هناك منديل أحمر. ولكن كيف عرفت؟"

" رجال شرطتنا هم على كفاءة عالية، يا سيدتي. فنحن نعرف هذه الأشياء."

هـا أنـت الآن تقـدر بنفـسك وضـع كفـاءة قـوات الـشرطة، يـا عزيـزي نـوري . والـشخص الـذي سرقـت منـه أشـياؤه بالكامـل لا يدرك ذلك والشرطة هي التـي أعلمتهـا أن هنـاك أشـياء مؤلفـة مـن كذا وكذا قد سرقت وأن الشرطة وجدتها .

وعندما كان الوفد يغـادر بلـدنا، سـألهم صـحافيونا سـؤالاً كـانوا يسألونه لكـل وفـد يـزور بلـدنا . كـان فحـوى الـسؤال : " أي شيء في بلـدنا أعجبـك أكثـر مـن أي شيء؟" وعنـدما فـضل رئـيس الوفـد، وبسبب لطفه، الصمت، كـان هنـاك أحـد الـصحفيين مـن الـسخف بمكان أنه داس على ذنب كلب نائم . قال :

" رجال الشرطة هنا على درجة من الكفاءة والجاهزية . مـا رأيـك في هذا؟"

لم يعـد رئـيس الوفـد يحتمـل أن يـصون لـسانه . وهـاهي تعليقاتـه التي أطلقها :

" يتألف وفدنا من تسع أعضاء . وبقينـا في هـذه البلـد مـدة خمـسة عشر يوماً . وفي هذه الفترة القصيرة، تم نـشل جيـب كـل واحـد فينـا بمعدل تسعين مرة . فإما أن يكون رجال الشرطة لديكم عـلى درجـة

عالية من الكفاءة، أو أن اللصوص هم على درجة أعلى من الكفاءة ."

ونشر هذا الجواب في صحف اليوم التالي وبعنوان عريض :

" فن السرقة يبلغ ذروته في هذه البلد ."

قل لي الآن، يا عزيزي نوري، هل أنا من يلام على ذلك؟ وتورطت الشرطة في قراءة هذه الأخبار . واعتقلوني من أجل لا شيء . حسنٌ، قلت لي أنت بنفسك أن أنشل جيوبهم، ونشلت جيوبهم . طلبت مني أن أؤدي هذا الواجب الوطني، وقمت بهذا الواجب الوطني . إذاً لماذا بحق الله تعتقلني؟ وقلت لحيدر مهدداً :

" سأخبر المحكمة عن كل شيء في هذا الموضوع ."

" يا بني، إذا ما فعلت هذا، يوجد لدينا حتى هذه اللحظة وعلى الأقل مئات من السرقات التي لم نقتف أثرها بعد وسأسجل كل هذه السرقات باسمك . وسأجعلك عندها تعترف بكل هذه السرقات وتأكد أنك لن تخرج من السجن إلا بعد ألف سنة على أقل تقدير ."

وأمسك الخوف بلساني أمام المحكمة كأني لا أملك لساناً في فمي . وحكمت علي المحكمة بالسجن مدة سنتين وهاأنا ذا أعاني من نفس الشيء .

قال أحد السجناء معلقاً، بعدما سمع حكاية كرافتي إحسان :

" سنتان هما لا شيء بالنسبة إليك . ستمر بلمحة عين ."

" أنت على حق، ولكن دخول السجن بهذا العمر يجعلني قلقاً وغير مرتاح . ليبارك الله برجال الشرطة الذين أحسوا بالرضا وهم يعاقبوني من أجل جريمة واحدة، وإلا، كيف يمكن الخروج من السجن بعدَ سنتين؟ وعزائي لنفسي الآن هو أن أقول لها إني أديت واجباً وطنياً وحداً وعوقبت لأني لم أؤد واجباً وطنياً آخر !"

* * *

المعرفة قـوة

عزيز نيسن

بعد أن استقلت من الصحافة، فتحت بقالية، لكنني سرعان ما أصبت بخيبة أمل. عملت في المحاسبة، ولم يمض يومان في عملي حتى طردت. وحاولت تجريب موهبتي في الرسم ولكن الجوع والبؤس لم يستغرقا وقتاً طويلاً حتى تغلبا علي. بعد أن يئست، خطرت في بالي فكرة أخرى لأكسب عيشي. عندما كنت أعمل صحافياً، نشرت العديد من قصصي ورواياتي المسلسلة في العديد من الصحف والمجلات. فكرت لماذا لا أطبع هذه القصص في كتاب وأجمع الكثير من المال من بيعها. كنت متأكداً أنه في اللحظة التي ستطبع فيها روايتي الأولى، ستبدأ جائزة نوبل للآداب بقرع باب منزلي. وبثقة نفس عالية، حملت نص أصغر رواية من رواياتي التسع عشرة وتوجهت إلى محل النشر. بدا كأن الرجل لم ير وجه

زبون منذ عام، لأني من اللحظة التي دخلت فيها محله، تقدم إلي ليرحب بي ترحيباً حاراً، وهو يفرك يديه، الأمر الذي ذكرني بعنكبوت يتقدم بسرعة ليمص عصير جسد ذبابة وقعت في شباكه.

وبغض النظر عن الحاجة إلى مقدمة طويلة، سألته:

" هل تنشر لي روايتي هذه؟"

جفل الرجل، كأن تياراً كهربائياً صعقه على حين غرة. حاولت أن أطمئنه:" هذا ليست رواية عادية، يا سيدي!"

وهذا ما صعقه مرة أخرى ورجع إلى الخلف خطوتين. تابعت كلامي:" قد يهمك أن تعرف أني أمضيت ثمان سنوات كاملة، في سجون هذه البلد."

استطعت أن أرى عيني الناشر الغائرتين وهما تقفزان من محجريهما من الفزع. وبفعل احترازي من أي حادثة معاكسة، وضع إحدى يديه على الصندوق الذي قربه. بددت مخاوفه قائلاً:" لا تقلق! لم يرم بي في السجن لعمل إجرامي قمت به. أبداً! بل بسبب أسباب مهنية. كنت صحفياً."

ثم كشفت له عن اسمي. تفاجأ. رجع خطوتين إلى الوراء. وتابعت تقديم أوراق اعتمادي:

" تعتمد هذه الرواية على ملاحظاتي وأنا في السجن . وهي مهمة تماماً ."

وبما أن الرجل ظل يتراجع حتى لمس الحائط، ولم يعد بإمكانه الرجوع إلى الوراء خطوة أخرى، تمتم جملته الأولى :

" لكن .. لكن يا أخي العزيز، نحن لا ننشر الروايات ."

" إذاً ماذا تنشرون؟"

" إذا كان لديك أي ....تاريخية .."

" هذا جميل . ستصبح روايتي شعبية بين الروايات التي لاقت اهتماماً في السنوات العشر الماضية من تاريخ هذا البلد ." قفز الناشر فجأةً، كأن شيئاً ضربه في عموده الفقري .

" هل قلت، السنوات العشر الماضية؟ كلا، كلا يا عزيزي . ومن سيقرأ هذا؟ لكني متأكد أن من أنفقوا وقتهم معك في السجن لا بد أنهم وجدوا أنك شخص مهم . أتمنى لو أنك كتبت شيئاً عن علم الآثار" .

" أنت قلتها، يا سيدي . يحتوي هذا الكتاب على الكثير من علم الآثار، وعلم الآثار، والحقيقة عدداً من "العلوم" . الأمر أشبه

بالموز، تأكل المضمون لتتخلص من الإمساك وتجعلك تتخلص من الإمساك : تأكل حتى تتوقف عن الحركة وهي توقفك عن الحركة، ستجد موضوعاً لاهتمامك لتقدمه . على أي حال، على أن يكون له اهتمامات جيدة؟"

" يا أخي العزيز، ستجد هذه النوعية في كل كتاب صدر في السنوات العشر الماضية ."

وحتى أكسب عاطفة الناشر، حاولت أن أكسب ثقته :

" أتعرف يا سيدي، لماذا استقلت من الصحافة؟ استقلت لأني لم أعد أتحمل الجوع، ولم أعد أستطع التنفس الهواء الفاسد في السجن أبداً" .

" لا يبدو عليك أنك سيء مثل سمعتك،" قال لي .

" أنت محق تماماً . أصبح قذراً فقط عندما يدوس لي إنسان على طرف" .

" في حقيقة الأمر، يبدو أنك شخص طيب . أريد القيام بشيء جيد لك" .

استطعت أن أرى كيف بدأ يتحدث بشيء من الجدية .

" يا عزيزي ؛ من يريد يقرأ كتباً حول الأدب، أو الثقافة، أو الطبيعة الفنية هذه الأيام؟ لقد ملأت مثل هذه الترهات معدة القارئ حتى أصيب بالغثيان . ألا تستطيع أن تكتب رواية رومانسية؟ رواية تتحدث حول آنسة عارية تماماً تُسيل لعاب القارئ : رواية تتضمن جريمة قتل وسلب مع استخدام كثير للسيوف والأسلحة النارية، رواية تؤدي خيانة الزوجة زوجها، أو خيانة الزوج إلى فيضان من الدموع من عيني القارئ . أعني نوعاً من الرومانسية سلسلة وعذبة" .

" آسف، ليس هذا اهتمامي" .

" إذاً، اكتب شيئاً يظهر أسلوباً فريداً في ارتكاب بعض الجرائم . دم، والكثير من الدماء، وأيضاً المزيد من الدماء التي لازالت تتدفق هنا وهناك . وابل من الرصاص، والسرقة، والشرطة، والمسدسات، والسكاكين، والإثارة !"

" كلا يا سيدي . هذا أيضاً ليس من اهتمامي . مستحيل" .

" حسنٌ، ألا تستطيع أن تؤلف كتباً حول قراءة الطالع وعلم التنجيم؟ كتابٌ يحذر من لص متوقع هل سيتم القبض عليه أم

سيفر بحثاً عن مغامرة جديدة ؛ أو كتاب يدور حول مستقبل الناس من خلال دراسة خطوط أكفهم، أو من خلال الكرة البلورية أو من خلال أوراق اللعب، وما إلى ذلك ."

" ليشهد علي الله، أني لست قادراً عل الكتابة في أيٍّ من هذه الموضوعات،" قلت له معترفاً .

نصحني قائلاً : " حسنٌ إذاً. استمع إلي . ابدأ بتأليف كتب حول مواضيع دينية، مثلاً : المنهج الصحيح في الاغتسال، ما يجب الاحتراس منه عند الوضوء، إلخ" .

" آسف يا سيدي، هذا ما لا لي قدرة عليه" .

" إذاً ما الذي تقدر عليه؟" سألني وألقى عليَّ بنظرة عدم احترام كأنه يقول لي : " أي كاتب عديم الفائدة هو أنت ؛ ألا تستطيع أن تكتب حول هذه الموضوعات البسيطة" .

كنت في تلك اللحظة أشبه بطفل على حافة البكاء . هممت أن أغادر مكتبه وأنا في حالة إحباط تام عندما ناداني، وبلهجة تحمل الكثير من الثقة، عرض علي اقتراحه الأخير : " أقترح عليك أن تؤلف كتاباً حول الجنس" .

" يا سيدي، لقد قلت شيئاً لا يليق بسيد" .

" لا يليق؟ هل المعرفة بأمر الجنس شيءٌ غير ملائم؟ يمكن عدَّ الموضوعات غير الجنس غير لائقة، لكن المواضيع المتعلقة بالجنس هي بالتأكيد غير ذلك . ستجد ناشرين عاديين يصدرون كتباً من هذا النوع هذه الأيام . في ذلك اليوم فقط، تجاوز عدد مبيعات كتاب حول الجنس الألف نسخة . من المؤسف أني لم أكن محظوظاً في هذا الموضوع، ألا أكون قادراً على إيجاد كاتب يمكنه استخدام موهبته في هذا الموضوع . يا صديقي العزيز، هذا الحقل منجم ذهب" .

" ولكن يا سيدي إن معرفتي في هذا الموضوع محدودة جداً" .

" هيا، هيا ؛ أنت رجل في عمر النضوج . كيف لي أن أصدق أن معرفتك بالجنس هي معرفة ضئيلة؟ أولست رجلاً؟"

" لم أكن أقصد هذا، يا سيدي . أنا أعرف حول هذا الموضوع، لكن معرفتي به لا تتجاوز معرفة رجل عادي لا أكثر . وأنا متأكد أنك تعرف في هذا الموضوع أكثر" .

" أنا . ستتفاجأ . ما أعرفه لا يعرفه أي شخص آخر، ولكن وا أسفاه، ليتني كنت كاتباً . أتمنى لو كنت كاتباً . أنت تعرف أن هذا

الموضوع يحتاج إلى التطعيم بالتوابل حتى يلعق القراء شفاههم فترة طويلة."

" هذا سيئ يا سيدي. فهذه ألأمور لمن هم في سنك لا ينبغي أن...."

" يا عزيزي، في الواقع هذا هو العمر الذي تبلغ فيه التجربة في هذا الموضوع ذروتها."

" حسنٌ إذاً، ما ذا لدي حتى أكتب حول الجنس؟"

" يا لك من ساذج، في الواقع. لا يوجد حدود في هذا الموضوع. على سبيل المثال، إرشادات هامة للاحتياجات المناسبة للاحتياجات الجنسية، المبادئ، والنماذج، وتقنيات العلاقة الجنسية، وطبيعة مثل هذه العلاقة كما تمارس في اليونان، وألمانيا، والولايات المتحدة. وإذا ما كتبت بضع جمل حول آخر التقنيات السائدة في أمريكا، فسترى الناس تزدحم أمام محلات بيع الكتب بأعداد كبيرة بطريقة لم تشهدها في توزيع أكسير الحياة مجاناً. كما تستطيع أن تلقي ضوءاً آخر على اقتصاد البلد، وتأثير الكلفة المتزايدة على العلاقة الجنسية، والطاقة الذرية، وأسباب وأدوية

الطاقة الجنسية المنحدرة عندنا، والدور الخاص للمشروبات الشرقية في غذاء رغباتنا الجنسية، إلخ ."

" أنت على حق تماماً . يبدو أنه لا يوجد نقص في المواضيع إذا أراد أحدنا أن يكتب . بيد أن المشكلة هي أنَّ كاتب مثل هذه الموضوعات يجب أن يكون طبيباً مؤهلاً ."

" هذه ليست مشكلة . سنقوم بإضافة كلمة " دكتور" إلى اسمك وفي مقدمة الكتاب سنقدمك على أنك اختصاصي بالجنس ."

" لكن هذا سيكون خداعاً، وكذباً ."

" ولماذا تنظر إلى هذا الأمر على أنه خداع، يا عزيزي؟ فبعد كل هذا، إذا استطعت أن تتقبل أطباء مزيفين في الاقتصاد، والقانون، وحتى في الطب، فلماذا لا تستطيع أن يكون هناك أطباء مزيفون في هذا الحقل؟"

وبعد هذه المحادثة الطويلة، تقبل عقلي هذا العرض . وبناء عليه، بدأت أكتب مباشرةً . منذ سنوات خلت، قمت سراً بدراسة بعض الكتب حول الجنس . وما استطعت أن أتذكره من تلك

الإصدارات، جعلته في مسودة كتابي . وأنهيت المجموعة الأولى في زمن قياسي . ومن الموضوعات الأخرى، تتضمن هذه المجموعة أحدث التقنيات في إنتاج ستة توائم . وكان الهدف من وراء هذا تقديم مساعدة عملية للبلدان التي تشكو من تعداد السكان المنخفض .

وتشرح المجموعة الثالثة من كتابي بعض المناهج العمليّة للكثيرين الذين يصرون على الإثبات العملي للتطبيقات العلاجية المقترحة . وتحت الإصرار المتواصل لمثل هؤلاء الزبائن فتحت قسماً منفصلاً في عيادتي لتقديم التدريب العملي . واستخدمت السيدات اللواتي هن في الثلاثين من أعمارهن، هذه التسهيلات والرجال اللذين أعمارهم في السبعينيات أو الثمانينيات، الذين اشتكوا من أن التعليمات النظرية الموجودة في هذا الكتاب كانت في غاية التعقيد بالنسبة إليهم حتى يفهموها . وكنت أتساءل، وأنا أراقب هذا العدد الهائل من الزوار يحتشدون في عيادتي، رغم جهل الناس بالجنس، أن العرق البشري لم ينج فقط بل كان يتكاثر وينمو بمعدل خطر في أنحاء البلد .

وصـدرت العديـد مـن المقـالات حـولي في الـصحف الكـبرى في البلد . وسرعـان مـا تجـاوزت شـهرتي الحـدود الـوطنيـة ووصـلت إلى الـدوائر الدوليـة . تلقيـت دعـوات مـن العديـد مـن الجامعـات في الغرب لتقديم محاضرات حول الجنس . واستجابة لطلباتهم، قمـت بجولـة لتقـديم المحـاضرات وزرت أوروبـا كلهـا مـع أمريكـا . وللحصول على قبـول في القاعـات الجامعيـة المزدحمـة للاسـتماع إلى نقاشـاتي، اعتـدت عـلى مـشهدٍ أرى فيـه النـاس مـن كـل المنـاطق المتحضرة في العالم وهم يحاولون الحضور جاهدين .

* * *

عدنان فيلي

ولد عدنان فيلي في استانبول عام ١٩١٦. انضم بعد أن أكمل تعليمه الابتدائي، إلى كلية القانون لكنه تركها قبل أن يكمل دراسته فيها. يعرف عدنان، الصحفي بالمهنة، بكتاباته الفكاهية. بدأ نشر قصصه في الصحف. ومعظم قصصه الفكاهية هي ذات طبيعة ريبورتاجيه.

جعل شخصياته القصصية تتحدث بلغة الحياة الواقعية البسيطة. وهو خبير في فن الإشارة إلى التشوهات الشائعة في السلوك الاجتماعي والسياسي لأهل بأسلوب خفيف. وتحمل بعض قصصه عنصر السخرية. وقصة "كل شيء على ما يرام في الديمقراطية"، الموجودة في هذه المجموعة، نموذج للغة وأسلوب عدنان فيلي المميزين.

كل شيء على ما يرام

في الديمقراطية

عدنان فيلي

دخل مكتب المحامي صبري على عجل، وقد خلع قبعته وزرر سترته دلالةً على الاحترام لشخص كان زعيم حزبه. عكس وجهه مشاعر الخجل والإحراج وهو يتمنى للمحامي صباحاً جميلاً. كان نامد رجب، مثالاُ للقروي الأناضولي النموذجي.

قال المحامي: " ادخل يا رجب، ولنرَ ما قد أزعجك، منذُ يومين وأنت تحوم حول هذا المكان. لا بد أن هناك مشكلة قد وقعت."

أجابه رجب: " نعم يا سيدي، هناك مشكلة قد وقعت. ولقد ذكرتها لك منذ مدّة. وأنا الآن يعتريني قلق كبير بسبب هذه المشكلة. وأنت أملي الوحيد لأنه ليس لي أحد آخر ألجأ إليه."

" أتذكر أنك قلت لي شيئاً لكني أخشى أني نسيته، ما كانت مشكلتك؟ ألقها على مسامعنا مرة أخرى ."

" كنت تقول لي يا سيدي أنه لا يوجد حزب كحزبنا وأنه لا يمكن لحزب مثله أن يولد مرة أخرى . هل تذكر؟"

" نعم قلت هذا وبدقة أيضاً . إذاً؟

" كما قلت لي أيضاً يا سيدي إن الديمقراطيون سيحكمون قبضتهم على السلطة مرة أخرى في انتخابات عام ١٩٦١ ."

" نعم، لقد قلت هذا أيضاً ."

" ولكن يا سيدي لم يستلم الحزب السلطة أبداً لأن المحكمة أصدرت أمراً بحله ."

" نعم، لسوء الحظ هذا ما حدث . يا للأسف !"

" والآن ماذا سيحدث لنا؟"

" أقول لك صادقاً، أنا لست متأكداً من هذا بعد . لكني أستطيع أن أقول لك إن أصدقائنا يفكرون في تشكيل حزب جديد سيعرف باسم الحزب الديمقراطي الجديد ."

" يمكنهم تشكيل أي حزب ولكن ليكن واضحاً للجميع أني لن أنتسب إليه ."

" ولم لا؟"

"لأني لم أستلم حتى ديوني السابقة . من سيجعلني ادفع أقساطي القديمة؟"

" وما الدفعات القديمة، يا رجب أفندي؟"

"الحزب الديمقراطي يا سيدي، يدين لي بمبلغ ١١١٥ ليرة ."

" عل أي أساس؟"

" على أساس العمل الشاق، يا سيدي . لقد تخليت عن خدمة طويلة للحزب وأنا متأكد أنه سيدفع لعدد من الأشياء التي قمت بها من أجله ."

" ولكن يا صديقي العزيز، أي نوع من المطالبة المالية تلك التي لديك على الحزب المنحل؟"

" لدي كل التفاصيل بالأسود والأبيض . بقيت أدخر طيلة الأشهر الستة الأخيرة، من يوم الاثنين وحتى يوم الأربعاء ومن

يوم الأربعاء حتى يوم الأحد. وليس هناك أي أثر لأموالي. أصبحت الأمور أكثر تعقيداً منذ القصف التي وقع في شهر آيار الماضي عندما تجمع كل المنشقين الكبار في الحزب. ورحل رئيس مجلس المقاطعة في الحزب وكذلك المحاسب. والآن أنت المسئول الحزبي الوحيد الباقي، الذي نلجأ إليه للمساعدة. لقد جعلت منك الاعتقالات المسمار الرئيس في الحزب. فإذا كنت أنت لا تستطيع أن تدفع لنا مستحقاتنا فمن ذا الذي يستطيع؟"

" يا رجب أفندي، هذه الأحجية لا يستطيع عقلي حلها. على أي أساس تطالبني بمبلغ ١١١٥ ليرة؟"

" يا سيدي، لقد كسبت هذا المبلغ من خلال عملي الشاق والمرهق. انظر إلى هذه الورقة. فيها كل التفاصيل. هاك..."

أخرج ورقة بالية ملفوفة عدة مرات من كيسه وسلمها إلى المحامي. ألقى السيد صبري نظرة على الورقة وقال مستفسراً:

"علام هذا المبلغ ٢٥٠ ليرة؟"

"هذه نفقات الانتخابات."

" ماذا؟"

" خلال انتخابات عام ١٩٥٧ اشتريت ١٢ صوتاً من قريتي وجعلتهم يصوتون في مركزي الانتخابات المختلفين لمصلحة المرشحين من الحزب . ودفعت لكل واحد منهم مبلغ ٢٠ ليرة ."

"اثنا عشرة ناخباً لكل واحد منهم يصبح المجموع ٢٤٠ ليرة، وليس ٢٥٠ ليرة ."

"لقد دفعت ١٠ ليرات للشاحنة التي أقلت المنتخبين ."

" حسن . وعلام هذه الـ ١٦٠ ليرة؟"

هذه نفقات دراسة الحنطة . أثناء الانتخابات نفسها، ألحقت هزيمة بمنطقة رئيس حزب خلق ."

"وكم تدفع عادة من أجل هذا؟"

" لقد دفعت مبلغ ١٥٠ ليرة لكن الوغد ذهب إلى المستوصف وكان علي أن أدفع مبلغ ١٠ ليرات لشراء محلول وضمادات لجروحه . وهذا يجعل المبلغ يصل إلى ١٦٠ ليرة ."

"هذا إنصاف . وماذا ستقول حول هذه الـ ٢٢٥ ليرة؟"

" آه أجل، هذه نقود الافتراء ."

"ما معنى هذا؟"

" هل تذكر يا سيدي، أني قدمت شكوى ضد جمال من حزب خلق، لأنه كان يقول كلاماً للزوجة عدنان مندرس الثانية، وان تصرفاته مع زوجته تساوي إساءة معاملة شخص من الحكومة نفسها؟"

" أذكر هذه القضية . أتقصد من كلامك أن الرفيق المسكين لم يكن يستخدم فعلاً لغة مسيئة؟"

" كلا، لم يكن يفعل . يا سيدي، سأموت في يوم من الأيام وأنا أرتعد خوفاً من الله العلي القدير . كيف لي أن أقول إن الرجل كان يسيء معاملة السيدة بينما هو لم يكن يفعل هذا؟"

" لكنك قلت ذلك في ذلك الوقت، أليس كذلك؟"

" نعم . ولكن بعدما تلقيت مستحقاتي المالية لتلك الخدمة، علي أن أبين الحقائق؟"

" وكيف تفسر لي هذه الـ ٨٠ ليرة؟"

"دعني أرَ . آه، أجل، هذه نقود حلف اليمين ."

"ما معنى هذا ."

"هذه شكوى ضد سليمان من حزب خلق على أنه شيوعي . والشكوى قدمت مع حلف اليمين وهذه الـ ٨٠ ليرة من أجل ذلك اليمين ."

"وأمام من حلفت ذلك اليمين ."

" أمام المدعي العام، يا سيدي . هل تعلم أن المدعي العام سألني كيف أعرف إذا ما كان سليمان شيوعياً أم لا . فأخبرته أني أعتقد أنّ الشيوعية من سمات ذلك الرفيق . وحتى أقنعه أكثر، كان علي أن أحلف اليمين ."

"وهل كنت تعتقد أن هذا فعلاً من سماتِ سليمان؟"

"جزئياً من نظراته وقسماته وجزئياً من أحاديثه ."

"وماذا كان يقول وهو يتحدث؟"

"كان يقول " اقتصاد" وشيئاً من هذا القبيل ."

"وما معنى هذا؟"

"هذا يعني أنه شيوعي رقم واحد ."

"حسنٌ، وماذا عن مبلغ التسعين ليرة؟"

"هذه أتعاب الحصول على حمير سجلت على أنها ناخبين . وهذه الحمير هي حمير رئيس قريتنا ."

"وهل على المرء أن يدفع ليسجل على أنه ناخب؟"

" طبعاً يا سيدي . هذا ما وعد به رئيس حزب مقاطعتنا . قال في إذاعة أنقرة إنه سيتم دفع ٤٠ ليرة عن كل رأس من الأسماء التي ستذاع في المذياع كناخبين لحزبنا . وبما أن كل رجال قريتنا قد تم تسجيلهم على أنهم ناخبين، لم يكن لدينا خيار سوى أن نلفق اسمين من حمير الرئيس، وأن نلمح إلى هذين الأسمين من خلال برقية نرسلها إلى راديو أنقرة . أطلقنا على الحمار الكبير اسم لاكي وعلى الصغير اسم حونيور . وتم إذاعة هذين الاسمين، بهذا خولنا لاستلام ٤٠ ليرة لكل رأس من أجل اثنين، إضافة إلى ١٠ ليرات للبرقية ."

"وهذه الفقرة الأخيرة لمبلغ ٢١٠ ليرة ليست واضحة تماماً . هل تستطيع أن تسلّط شيئاً من النور عليها؟"

"هذا " كلب النقود"، يا سيدي ."

" وما معنى هذا؟"

"، يا سيدي، هل تعرف بائع السجائر كامل في حزب خلق؟"

"نعم."

"طلبنا من صديقنا رحمان أن يعض إحدى ساقي زوجة كامل. وقدم كامل شكوى للشرطة التي قامت بدورها بإرسال السيدة كامل إلى طبيب البلدية لإجراء الفحص الطبي. والطبيب من حزبنا، كما تعرف. فنصحنا أن نقوم من فورنا بتقديم كلب، كي يكتب في التقرير الطبي أن جرح السيدة كامل هو نتيجة عضة كلب. وهذا سينقذ رحمان من الادعاء. ووفقاً لذلك، تدبرت أمر إيجاد كلب يتطابق حجم فمه مع فم رحمان تقديمه أمام الطبيب. وقدم الطبيب تقريره على أنه قضية عضة كلب كما تم التخطيط له وبهذا أنقذنا رحمان."

"فهمت. وأضفت كل هذه المبالغ، منتظراً أن يحلها الحزب، وتستطيع بذلك أن تسترد النقود مني!"

"عندما يكون الجميع محتجزين ومقيدين في جزيرة، لا يوجد لدي بديل آخر سوى أن أطلب منك مساعدتي، يا سيدي."

"حسنٌ، لا توجد مسؤولية تجبرني أن أدفع، مطالبتك هذه من حزب لم يعد موجوداً ."

" لكنك قلت لتوك إن تشكيل حزب جديد هو في عرض البحر . إذا كنت لا تتحمل مسؤولية طلبي، فإني أقسم بالله العلي القدير أني لن أفعل شيئاً لحزبك الجديد . وعليك أن تتذكر، يا سيدي، أن أمثالي من الناس هم دائماً نافعون لأي حزب سياسي وللديمقراطية نفسها . عليك أن تعرف أنّ المشكلة محلولة . إذا ما سويت لي مستحقاتي، على نحو جيد، وإلا فسأجبر على أن أتخلى عن كل الخدمات القيمة التي كنت أقوم بها في سبيل هذه الأمة وأصبح رجلاً شريفاً في كل الأزمنة القادمة . أنا متأكد أنك ستكون بحاجة إلى رجل مثلي فعلاً . لا تنس هذا وأنت تصل إلى القرار النهائي المتعلق بالمستحقات المالية . وأيضاً، استمع إلى صوت ضميرك أنت قبل أن ترفض الدفع لخدماتي السابقة ."

"من الأفضل لك ألا تعلق آمالك علي، يارجب أفندي . سأقدم لك نصيحة صغيرة بهذا الخصوص . يقال إنه سيتم الحجز على

ممتلكات عدنان مندرس . يجب عليك أن تذهب إلى المدعي العام وتتقدم إليه بطلب مفاده أن رئيس الوزراء السابق يدين لك بالكثير من المال، ويجب عليك أيضاً أن ترفق لائحة بالمطالب من هذه الممتلكات المصادرة . وبهذه الحالة، أضف هنا مبلغ ٥٠ ليرةً على أنها نقود الحجز، وبهذا يصبح مبلغ المطالبة ١١٦٥ ليرة . شكراً لخدماتك، ووداعاً !" .

" وداعاً، يا أخي، وأتمنى من الله أن يحل مشكلتك" .

* * *

يشــار كمــال

ولـد عـام ١٩٢٢ في قريـة في أضـنة، يُعّـد أحـد الأسمـاء الـشهيرة في الأدب التركـي،. تـوفي والـده وكـان عمـره أربعـة أعـوام. وكانـت تلـك بدايـة كفـاح بالنـسبة إليـه. لم يـستطع متابعــة دراســته بعــد أن حــصل علــى قبــول في المدرســة المتوسـطة. إذا كـان عليـه أن يعمـل في بعـض الأحيـان عـاملاً بالمياومة في حقول القطن في أضنة، وفي بعض الأحيان كان يعمل مشرفاً على عمال المياومة. كما عمل أيضاً مراقبَ ري في حقـول الأرز. وبعـد أن كـدح مـن أجـل البقـاء في أعمـال زهيـدة الأجـر لسنوات عديـدة، قـرر أن يتخـذ مـن الـصحافة مهنة له. وأثبت نفسه عندما عمل مراسلاً صحافياً وكاتباً غزيـر الإنتـاج للقـصة القـصيرة، والروايـات، والمـسرحيات، واكتسب شهرة ليس فقط على مستوى بلده بل أيضاً على

مستوى عالمي. وترجمت روايته (محمد الناحل) إلى ٦٢ لغة في أنحاء العالم. كما استلم منصب رئيس نقابة الكتاب الأتراك.

اشتقت مواضيع كتابات يشار كمال من الأناضول ومن حياة الناس في تلك الأرض. وبفضل تجربته المرة والطويلة من العيش قريباً من الأرض، بين العمال الكادحين الذين يعملون بأجور زهيدةً، في الحقول، استخدم ببراعة قلماً قوياً جداً وهو يصف جهود ومحن هؤلاء الناس والظلم الذي يلحق بهم من الأغوات القساة القلوب في أضنة. وقد دعم ملاحظاته الحادة من ذاكرة متوقدة ساعدته على رسم صورة شديدة الواقعية في الحوار والشخصيات التي ضمتها رواياته وقصصه.

تتصف اللغة التي يستخدمها يشار كمال بالجمل القصيرة مع الاستخدام الحر للهجات المحلية والفلكلور. مما أضاف الواقعية على كتاباته. وحاز على العديد من الجوائز الفخرية الأدبية، سواء في الوطن أم في الخارج.

الصيـــاد

يشـار كمـال

المسافة الواقعة بين جبل همت وأنافارزا عبارة عن واد عريض ومستو. يتلاقى جدول سافرون مع نهر جيهان في قاعدة أنافارزا. وتغطي المنطقة الواقعة بين التقاء النهرين حتى قرية فيفيل مساحة كثيفة من القصب. وفي أي وقت من اليوم، تبقى المنطقة المطوقة بأغج اشازا، وجبل همت، وأنافارزا، وفيفيل مغطاة بطبقة من الدخان. والأصح أن ندعوها بغشاوة من الضباب. ويصبح الضباب كثيفاً عندما يصل إلى أغكاساز. حيث لا يعود ضباباً بل يتخذ شكل الدخان. وقريباً من كيسيكال، يشكل نهر جيهان بحيرة صغيرة. وتوجد بين مياه نهر جيهان وهذه البحيرة الصغيرة جزيرة صغيرة. قطعة من الأرض مظلمة، سوداء، مسطحة كرخام لامع.

ويتجمع على سطح مياه البحيرة، في الشتاء، أسراب البط المهاجرة من بلدان أخرى إلى هذه المنطقة .و يصبح سطح المياه كله عبارة عن طيور بط .

وتغطي الطرقات غبار كثيف يصل إلى الركبة . الذي يحترق كحديد محمى أحمر . وتغطى ضفاف أغاج اشازا نبات القصب، والعشب الأخضر الطازج، والبارد، والمتلألئ . ويعرف هذا القصب بـ "البيردي berdi"، سكاي بيردي . . . والسيقان البنية من البيردي تنحنى نحو الماء . وتتمدد أنسجة العنكبوت من بيردي إلى آخر . وهي لزجة، كل واحد منها تعادل سماكتها سماكة حبل وكبيرة كملاءة سرير . وهي تهتز كلما هبت الريح، ولا تنقطع . ويصنع النحل الأصفر أقراص العسل الفضية المخضرة التي تتدلى من نبات القصب .

لا يستطيع المرء أن يبني منزلاً على ضفاف نهر الأغاج اشازا . وحتى لو بنى أحد منزلاً فلن يستطيع العيش فيه . حيث ينتشر الكثير من البعوض من كل الأشكال والألوان، السام منه وغير السام . والبعوض موجود هناك ليل نهار، كجماعات من النحل .

تأخذ الملاريا السامة حياة الإنسان في غضون أيام. هناك قرى قرب الأغاج اشازا. لن تجد أحداً يعمر أكثر من خمسين عاماً في هذه القرى.

* * *

كانت ذراعاه الثخينتان الداكنتان عاريتين دائماً. عاريتان في الصيف وفي الشتاء. وكان في كلا الفصلين الصيف والشتاء، يحمل بندقيته ذات الماسورتين ويذهب إلى الصيد في أغاج أشازا، في البحيرة التي تشكلت من مياه جيهان. وفي بعض المناسبات لا يعود من رحلات صيده أكثر من أسبوع أو أسبوعين. وأقصى فترة يبقى فيها مفقوداً هي ثلاثة أسابيع. ويعود بعد أسبوع أو اسبوعين بوجه شاحب، يغطيه الوحل من رأسه حتى أخمص قدميه. ولا تسمح له زوجه بالدخول قبل أن يخلع ثيابه أمام الباب، ويتعرّى تماماً. وقبل أن يرتدي ملابس نظيفة، يبقى واقفاً في الزاوية على رأس السرير حتى يتم ترتيب سريره، ثم يرتمي على السرير كشخص ميت وسرعان ما يستغرق في النوم. ويبقى نائماً على هذه الحال مدة ليلة ونهارين، دون حركة بسيطة ينهض في مساء اليوم الثاني، ويفرك عينيه لفترة طويلة، ثم ينهض ويتناول طعامه، وبعد ذلك ينظف بندقيته.

كان قد عاد من رحلة صيد وغط في نوم عميق. كان قد بقي على موعد استيقاظه خمس ساعات عندما أتت زوجه إلى السرير، وأمسكت به من كلتا ذراعيه وجعلته ينهض. وراحت تصرخ: " مصطفى موسلو، انهض! فالطفل يحتضر، انهض!".

ثم تركت ذراعيه ساخطة. ارتمى موسلو على السرير كميت. وذهبت المرأة وجثت قرب ابنها. وأخذت، والدموع تغطي عينيها تحدق في الطفل الذي كان مستلقياً على أرض عارية، وهو يرتجف بشدة، ويغمض عينيه بصعوبة. راحت تصرخ بمرارة، وصار صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً. حملت طفلها عن الأرض العارية وضمته إلى حضنها، وخرجت. كان الجو حارقاً في الخارج. ويلف المكان هواء ثقيل. والشمس لا تدع مجالاً للتنفس. ثم راحت تركض في كل الأنحاء. رأتها امرأتان، لم تخرجا إلى الحقول، وهي في ركضها المجنون هذا. أمسكتا بها من يدها، ودفعتا بها إلى الداخل. وراحتا تواسيانها بعضاً من الوقت ثم مضتا في حال سبيلهما. أجل، راحتا في حال سبيلهما. كان بإمكانهما أن تبقيا ولكن هذا ما يحدث في القرى. فللناس أشياء كثيرة ليقوموا بها.

وكما في السابق، تركت المرأة مرة أخرى مع طفلها المريض وهو يرتجف في حضنها. وكانت حرارة جسد الطفل تحرقها بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وفوق كل هذا، أصبح لسانه وحنكه جافين بحيث أن... نهضت ساخطة، ودخلت، وأمسكت بموسلو من يديه وشدته بكل ما أوتيت من قوة. وراحت تكلم موسلو في أذنه وهي تصرخ بأعلى صوتها:

"موسلووو! يا موسلووو! يا موسلووو! الطفل يموت، يا موسلو! انهض، يا موسلو!"

وبقيت على هذه الحال وهي تصرخ بعض الوقت. ثم انخفض صوتها، وتحول أخيراً إلى مجرد همس. وضعت الطفل على الفراش. كان يرتجف ويخرج من فمه الزبد، كشخص أصابته نوبة صرع.

طفقت المرأة تحدث نفسها في جمل متكسرة: "اسمعني يا موسلو! عندما تزوجتني، قلت إنّك ستطعمني لبن العصفور. وانتظرتني حتى آتي إليك أشهراً وسنوات. لم يكن والدي يرغب بتزويجي منك. تخليت عن أبي، يا موسلو، وعن أخوتي وأخواتي، وعن بيتي وعن كل ما أملك، وأتيت إليك. وها قد مرت خمسة عشرَ عاماً منذ أن رأيت وجه والدي ووجه أمي. وبدل ذلك،

اتخذتك بمثابة أمي وأبي . من السهل أن تقول خمسة عشرَ عاماً، يا موسلو ! مضت خمسة عشرَ عاماً وأنت مشغول فيها يا موسلو في مغامرات صيدك بينما أقوم أنا بفلاحة الأرض، ودرس القمح، وأخذ القمح إلى السوق لأبيعها هناك . خمسة عشرَ عاماً وأنت لم تقم بفعل أصغر الأشياء، لم تقم حتى بغمس أصابعك بالماء الحار ثم بالماء البارد . كنت أنا من يتحمل مشقة العمل . انظر إلي يا موسلو، انظر إلى شعري الأشيب . هل قدر علي أن أصبح عجوزاً وأنا بمثل هذا العمر؟ لم أفكر ولو مرة واحدة أن أهجرك حتى يوماً واحداً . وفي أيام الشتاء، وأنت تطارد البط، كانت عيناي تسهران، وأنا خائفة من أن تعلق بسبخة ما . ودون أن يرف لي جفن، أفكر بك، وأذرف الدموع من أجلك حتى يبزغ الفجر . أجل، يا موسلو . مات ابني سليمان . ولم تكن هنا لترى حتى وجهه . ومات ابني ديرفش . ولم تكن هنا لتحفر قبره . ولم يبرد جسد ابني الميت عندما أخذت بندقيتك وخرجت للصيد . ومع ذلك، صبرت، وأنا أضع حجرة على صدري . حتى لا تشعر بألم، لم أفصح عن كل هذا ولو مرةً واحدة . الطفل يحتضر، يا موسلو ! انهض، يا موسلو ! انهض وقل لي ماذا أفعل، يا موسلو !"

ارتمى موسلو على السرير، ببطء . ومرة أخرى ذهبت المرأة إلى رأس الطفل وأغلقت عينيه . ثم حانت لحظة عندما أخذ فم الطفل يزبد، لفترة قصيرة . وبعدها أصبح متوتراً، أصبح مرتاحاً تماماً بعد فترة قصيرة

. بنفس هذه الطريقة مات سليمان . ورمت المرأة نفسها على الطفل، من الرأس حتى القدمين . لم يعد يسمع صوتها، ولم تنهمر الدموع من عينيها . لم يكن هناك أحد في القرية لينقل جثة الطفل، ليساعد الأم حقّاً بأي طريقة كانت . وفي المساء، وتماماً في الوقت المحدد، نهض موسلو . وبقي يفرك عينيه فترةً طويلة .

قالت المرأة : " يا موسلو، لقد مات الطفل، يا موسلو !"

قالت هذا بقلب منفطر . نهض موسلو، كأنه لم يسمع شيئاً، كأن شيئاً لم يحدث . أخذ بندقيته، وراح يمسحها، ودون أن ينظر إلى الوراء، شق طريقه إلى أغاج اشازا . لم تنبس المرأة ببنت شفة . كانت تعرف ما حدث . لم تكن تتوقع أكثر من ذلك . وكان أحد الجيران، ويدعى نايك علي، أي علي الصفر عائداً من الحقول . ذهبت إليه :

" يا آغا، يا آغا علي ! لقد مات طفلنا، ماذا علينا أن نفعل؟"

كان علي متعباً. نهض، وأعلم أهل القرية. وقامت السيدات بغسل الطفل الميت. وفي ظلمة الليل الحالكة، وضعوا الطفل في قبر صغير ومظلم.

ونصحها أهل القرية: "لقد بلغ السيل الزبى! اأتركي هذا الرجل واذهبي إلى منزل أبيك. لن تري أي شيء جيد من هذا الرجل موسلو. اتركيه وارحلي."

حسنٌ، هذا ما اعتادوا قوله لها في كل يوم لكنها لم تكن تعر قولهم هذا أي انتباه. بل كانت تسمعه بأذن ويخرج ما يقولونه من الأذن الأخرى. لكن كلامهم الأخير هذا استقر عميقاً في قلبها كمرساة.

لم تنم طوال الليل. بل بقيت تفكر في كلام أهل القرية. وعند الفجر، جمعت أشياءها، ووضعتها في حقيبة، وتوجهت إلى منزل والدها الذي لم تزره منذ خمسَ عشرةَ سنة كاملة.

وكان موسلو يجول في أنحاء الجزيرة التي تشكلت من مياه نهر جيهان، ومن سبخات أغاج اشازا... ثم عاد، وجسده كله يؤلمه. عاد إلى المنزل، ووجده خالياً. لم يكن يتوقع هذا. بدا كشخص

أصابه طلق ناري . انهار أمام عتبة المنزل . رفعه الجيران ووضعوه على السرير .

* * *

لا يمكن أبداً، أبداً لمنزل أن يبنى على ضفاف أغاج أشازا لأن مرض الملاريا يجعل الناس تجمع أغراضها وتنتقل إلى عالم آخر في غضون شهر . وحتى اليوم، لم يبنِ أحد منزلاً هناك .

والآن هناك كوخ صغير على الجانب الشرقي الجنوبي من ضفة أغاج اشازا . والمنطقة كلها التي تقع حول الكوخ مفروشة بريش البط، والإوز، والدجاج البري، وطائر السمان، والله يعلم ماهي الطيور الأخرى . يمكن أن ترى ريش الطيور وهي عالقة على أغصان الأشجار .

والمنطقة الواسعة بين جبل همت وأنافارزا هي أرض منبسطة . ويوجد في تلك المنطقة ما بين خمسَ عشرةَ إلى عشرين قرية . وهنا في هذه المنطقة، ومنذ عدة سنوات، رجل يحمل بندقية على كتفه، يغطيه الطين الجاف، وشعره الأشعث متصل بلحيته، يبيع القرويين طيوراً اصطادها هو . هذا الرجل يدعى موسلو .

* * *

المكنسة

يشـار كمـال

كان اسم أحدهما رشيد، واسم الآخر درمش . كان رشيد طويلاً ونحيفاً بينما كان درمش قصيراً وبديناً إلى درجة أنه كان يلقب بالكرة .

كان الفصل ربيعاً . وكانت السماء قد أمطرت وتباركت الأرض بيوم ساطع متلألئ . وأعطت الأرض انطباعاً كأن ألأضواء تنبع من الأرض .

سارا تحت المطر، حتى بزغ الفجر . والآن، كان البخار يتصاعد برفق من حقائبهم المتشربة بالماء . وقفا فترة من الوقت دون أن ينطقا بكلمة واحدة . كانت أجسامهما تحت الخصر ملتصقة بفعل الوحل .

ومن بعيد، ومن منتصف الوادي مباشرة، التمعت كالمرايا ألواح التوتياء من المزارع .

رفع درمش رأسه ببطء . وبسبب تعبه، كانت كتفا رشيد متدليتين، وكانت وجنتاه الغائرتين جافتين ومحترقتين من الشمس . بدا كأن العمر قد تقدم به .

تبادلا النظرات ثم، مرة أخرى دون أن يتحدثا إلى بعضهما، تحركا . كانا مغموسين في الوحل إلى كواحلهما . وكانت ركبتاهما تصطكان بسبب التعب .

سارا حتى حان الظهر . كان هناك غطاء من الدخان يصعد فوق الأرض المشمسة . ومن جهة الجنوب، كانت هناك سحابة ضخمة من الغيوم السوداء تزحف تجاههما . دخلا المزرعة .

كان هناك ديك أبيض ينكش في كومة من الروث . ثم وقف أمامهما كلب جبان وهو ينبح . وقف جروه يلمع برهة وحك نفسه قبل أن يبدأ لعبه المرح .

لا مست رائحة السماد الفاسدة أنفيهما .

وقف درمش ونظر باتجاه رشيد . وتوقف رشيد أيضاً . وبدأ بالتوجه نحو البناء البعيد، والضخم، الأشبه بالحظيرة والمصنوع

من الآجر المجفف بالشمس . وعندما وصلا إلى باب بيت ذلك الشخص الطويل القامة، والضعيف، والبشع الذي ينتمي إلى ما يعرف بـ " أبناء الأرض" خرج . وكانت ساقاه المعقوفتان باديتين للعيان حتى من تحت ملابسه الداخلية .

وفجأة، قال لهما : " توقفا ! أزيلا عنكما هذا اللحاف الذي تحملانه على كتفيكما ."

ودون أن ينطقا بكلمة واحدة، قام درمش ورشيد بإزالة اللحاف من فوق ظهريهما ووضعاه على الأرض، استندا إلى الحائط .

رشيد : " يا آغا، دعنا نعرف اسمك رجاء ."

الرجل : " اسمي هو فيلي . وأنا بعد الآغا، الشخص الثاني في هذه المزرعة . من الأفضل لكما أن تعرفا هذا . أنا تفاحة في عيني الآغا، أنا المسؤول عن كل شيء في هذه المزرعة . هذا هو الأمر ...."

أصبح رشيد ودرمش حذرين واتخذا وضيعتين مختلفتين وجهاً لوجه أمام فيلي . أحس فيلي بقيمته . قال مستفسراً : " من أرسلكما إلى هنا . هل أعطاكما أحد اسمي؟"

رشيد :" لقد أتينا هكذا ."

أحس فيلي بالانزعاج. سألهما: " باسم من أتيتما إلى هنا؟ كيف لأحد أن يدخل مزرعة العدس دون أن يذكر اسم فيلي؟"

" حسنٌ، أتينا من تلقاء أنفسنا. لم نسأل أحداً. رأينا المزرعة فأتينا..."

غضب فيلي. " أيها الوغدان؛ هل قال لكما أحد إنه يوجد هنا شخص يدعى فيلي، وأنه سيعرض عليكما عملاً؟"

بقي رشيد هادئاً.

قال فيلي مصراً: " لنرَ، ألم يقل لكما أحد؟"

رشيد: " يا آغا، لقد سمعنا اسمك من القرية."

" لماذا لم تقل هذا حتى الآن؟ هذا يعني أنك سمعت عني في قريتك."

رشيد: " أجل."

بعدما أشار إليهما برأسه إشارة أن " اتبعاني"، راح يقودهما. وسارا خلفه. عندما وصلا إلى كوخ صغير متداع، توقفا.

بدا فيلي كالجندب. صرخ قائلاً:

" خانم ! يا خانم !"

ومن باب صغير للسكن كان يمكن أن يرى امرأة ذات شعر أشعث، ووجه متجعد، وهي تحاول أن تزرر صدرها العاري.

فليلي: " يا خانم، هذان ضيفانا."

دخلت النساء إلى الداخل. قال فيلي بصوت كالرعد:

" افرشن غطاء الحصان وهيئن الفراش. لقد قدم هذان من مسافة بعيدة أبعد من البستان عندما سمعا باسم فيلي."

دخلوا، فيلي في المقدمة وهما وراءه.

وفوراً، انشغلت المرأة في وضع الغطاء على الأرض الموحلة. وأشارت إلى طرف الغطاء، أشار فيلي للضيفين بأن يجلسا، وقال:" والآن بعدما أتيتما إلى هنا وقد سمعتما باسم فيلي، أنتما على رأسي."

كان المنزل المؤلف من غرفة واحدة، بسقف واطئٍ مغطى بالقش قد تحول إلى منخل، لا يوجد فيه من الأثاث شيئاً اللهم باستثناء لحاف وضع في إحدى زواياه، وفراش. كان الفراش قديماً جداً، وقذراً، وكما يقال، حتى الكلب يعاف النوم عليه. وماذا أيضاً؟ آه أجل، كان ثمّة أيضاً عربة مصنوعة من خشب الصنوبر.

وتحولت المساحة حول العربة إلى بحيرة صغيرة لأن الغرفة كانت ترشح من جوانبها كافة .

فيلي : " يا خانم، لقد قطعا كل هذه المسافة من البستان عندما سمعا باسمي . أسرعي وأعدي لهما بعض القهوة ! "

وضعت المرأة غصنين يابسين في موقد النار الموجود في زاوية الغرفة وأشعلته . ثم ملأت كوباً معدنياً كبيراً بالماء ووضعته على الموقد .

فيلي : " يا خانم ! أعدي لنا قهوة جيدة، وضعي فيها الكثير من السكر . فلقد .... "

إلى جانب العمود الرئيسي في الغرفة رقد كلب عجوز ليس له أسنان وتناثر شعره على أنحاء جسده، واضعاً رأسه على رجليه الأماميتين . كان يفتح إحدى عينيه بهدوء عندما يسمع أصواتاً، ثم يعود ويغلقها ثانية .

فيلي : " يجب أن أعثر لكما على عمل جيد ! "

رشيد : " باركك الله، يا أخي فيلي . شهرتك هي التي جعلتنا نأتي إلى هنا . "

استدار فيلي إلى زوجته وقال :" هل سمعت يا خانم ما قاله؟"

ثم استدار إلى رشيد وقال له :" أعد ما قلته مرة أخرى فربما تسمعك ."

رشيد : " سمعنا عن شهرتك فقطعنا كل الطريق من ... "

فيلي :" ما العمل الذي تحبان أن تعملا فيه ؟"

رشيد :" أجير في مزرعة ."

درموش :" أجير في مزرعة ."

فيلي :" سأقدم إليكما الآن العمل الذي تحبانه ."

طأطأ رشيد عنقه ببطء وقال بحياء :

"وما هي أجورنا، يا آغا فيلي؟"

فيلي :" ستحصلان على ما يحصل عليه الآخرون من أجر . أنتما من رجالي . ولا يمكن للآغا أن يدفع لكما أجراً أقل . ليس واحداً، ولا خمسة، بل هناك آلاف من الرجال غيركما أتوا إلى هذا الباب وانصرفوا . قال الآغا :" فيلي، يا بني ؛ لا تترك أحداً لم يدفع له أجره المستحق له . لقد رزقني الله ما شاء أن يرزقني . ووضع في حلقي

حقوق الآخرين، فلا تلق بي إلى النار ." لا يمكن لأحد أن يكون صنواً للآغا . وعلى عكس الأغوات الآخرين، لا يأكل حقوق الآخرين، ولا يجلد الآخرين بالسوط . وإذا ما دفع أحدهم قرشاً، يدفع هو خمسة . ولهذا السبب تراه مديوناً . إنه لا يؤخر حقوق الآخرين . فلا تقلقا من هذه الناحية . أنا أضمن لكما هذا . فأنا كفيل الأغا ."

رشيد :" هذا جيد، يا أخي ."

درمش :" حسنٌ ؛ هذا ما كنا نصبو إليه ."

أمسك فيلي بيد رشيد وقال :" كلا، لا يوجد مثل الآغا في تشوكوروفا . فهو رجل كريم كالبحر . أنا معه منذ ثمانية أعوام ولم أر منه سوءاً قط . جاءني مباشرة إلى منزلي . صدقاني، جلس على هذه المرتبة التي تجلسان عليها الآن . وقال لي :" مرحباً يا فيلي، يا بني . كيف حالك . هل أنت بحاجة إلى نقود؟" أجبته : " أنا لست بحاجة، يا آغا . شكراً لك، نحن نتدبر أمورنا جيداً . ولو احتجت المال، فلن تبخل به . جيبك مفتوحة لنا دائماً . أستطيع أن أمد يدي وآخذ منها ." استدار الآغا إلى زوجتي وقال :" كيف حالك يا

ابنتي؟ كيف حالك، يا زوجة ابني؟ هل تدبرين أمورك بما لديك؟ هل أنت بحاجة إلى شيء؟"

استدار فيلي إلى زوجته وسألها: " أليس هذا صحيحاً، يا فتاتي؟"

المرأة: " أجل. أجل. يأتي الآغا إلينا بين الفينة والأخرى. آغانا رجل جيد. الشكر له، فنحن لم نبق دون ملح، وصابون. هل يمكن لأحد أن يكون صنَو آغانا؟"

أسند درمش ذقنه إلى عصاه. وكان يعبر عن دهشته في كل مرة يقول فيها فيلي شيئاً. وكان يتكىء برأسه مشيراً بـ"نعم". وفجأة، فرت الكلمات التالية من شفتيه:

" يا له من آغا طيب! يقدم المرء حياته فداءً لمثل هذا الشخص. إذا دفع لك نقودك..."

اعترى فيلي الشك: " ماذا تعني بـ: دفع لك نقودك"؟ لقد قلت لك أننا شركاء. هل تظن أني أعمل أجيراً في مزرعته؟ هذه المزرعة هي بين يدي. ولو لم أكن هنا، لكانت ضاعت. ما رأيك، بعد كل هذا؟ "يدفع لك نقودك"! ما الذي تعنيه بهذا؟ هي بين يدي هاتين. قد أحرقها، وقد أهدمها، أو أتلفها. ولا يمكن لأحد أن يقول لي:" من أين أتيت، أو إلى أين أنت ذاهب، يا فيلي؟"

ثم استدار إلى زوجته بعينين واسعتين:

" أليس كذلك، يا خانم؟"

المرأة: " ما ذا يقولان؟ نحن أساس المزرعة."

رشيد: " لا عليك يا آغا. لا يمكن لعقله أن يفهم هذا."

أحس درمش باحمرار وجهه. وسقطت حبات من العرق على وجهه كالخرز. قال خائفاً: " عذراً، يا آغا. كل هذا خارج عن نطاق فهمنا."

رشيد: " ماذا يعرف عن الرجال، وماذا يعرف عن الكلمات!"

لا زال درمش غير مدرك للخطأ الفادح الذي من المفترض أنه ارتكبه. وقال، وهو يبدو عليه الذعر: " أنا لا أفهم لا الرجال ولا الكلمات... أعذرني لخطأي."

فيلي: " حسنُ، لقد عذرتك. لقد قلت لك إني لست بأجير. نحن مسؤولون عن هذه المزرعة، هذا هو السبب."

وفي هذه الأثناء، كانت المرأة قد أحضرت القهوة في فناجين الشاي. فكر فيلي قليلاً ثم قال متذكراً: " يا خانم، هؤلاء الأولاد جياع. لنعد طعام العشاء، وبسرعة!"

المرأة: " آه أجل، لم نفكر في هذا أبداً. "

فيلي: " لقد قطعا كل هذه المسافة من منزلها عندما سمعا باسمي. مكانهما على رأسي. "

" فيلي، يا فيلي هل أنت أعمى، يا فيلي؛ لم تكنس المكان لا من تحت الثيران ولا في منزلنا. هيا، قم بهذا فوراً. "

أحكم قبضتيه. أصبحت جبهته رمادية اللون. قال ملاحظاً: "هذه المرأة لا تناسب أن تكون زوجة الآغا. إنها تجعلني أيضاً "الآغا مكنس المنزل".

ونهض بسرعة وأمسك بالمكنسة بغضب.

* * *

شـيتين ألتــان

ولد شيتين ألتان، في استانبول عام ١٩٢٦. تخرج من كلية الحقوق في جامعة أنقرة. أكمل تدريبه للعمل محامياً، وعمل في الصحافة كصحفي محترف وهو لا يزال طالباً في كلية الحقوق. ومنذ ذلك الحين قدم مساهمات بشكل منتظم في الصحف.

ويعدّ ألتان صحفياً قبل كل شيء. كما كتب الشعر، لكن أهم إسهاماته الهامة في الأدب التركي هي مجموعة من المسرحيات تم تقديمها كلها في بعض المسارح الشهيرة في أنقرة واستانبول. وهو ليس كاتب قصة قصيرة. القصتان الموجودتان في هذه المجموعة " الترنيمة الجنائزية" و"غمامتي الحمار"، هما في الواقع عمودان كتبهما للصحافة لهما

طبيعة القصة القصيرة. تعكسان آراء الكاتب التقدمية بأسلوب ساخر رفيع المستوى. وإضافة إلى مسرحياته، جمعت المقالات التي كتبها للصحافة في كتاب.

الترنيمة الجنائزية

شيتين ألتان

كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين بالعدد. وكان متوسط أعمارهم خمسة عشر عاماً ــ كلهم أصغر من عمر ابني الأوسط محمد. كانت الغابات مغلفة باللون الأخضر الذي يميز آسيا البعيدة. كانت السماء ملبدة بالغيوم. وكانت تملأ منتصف الأرض، مياه منبسطة، راكدة وقذرة. وأكوام وأكوام من القصب المنصوب في كافة الأرجاء.

كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين. كل الأطفال .بعضهم في الثالثة عشرة من أعمارهم، وبعضهم في الخامسة عشرة، والرابعة عشرة، أو السابعة عشرة. كانت وكالات الأنباء، وهي تشير إليهم، تقدر أعمارهم وسطياً بالخمسة عشر عاماً. هذي الأرض، هذا اللون الأخضر الذي يميز آسيا البعيدة، وهذه الغابات، وهذا

الامتداد من المياه الراكدة القذرة . ملكاً لهم . وهم ملك هذه الأرض، هذا اللون الأخضر الذي يميز آسيا البعيدة، هذا الماء الممتد الراكد، وهذا القصب .

كان يأتي إلى هنا رجال ينتعلون أحذية لها أربطة متصالبة، يرتدون خوذات معدنية ويحملون أسلحة أوتوماتيكية .... أتوا من كاليفورنيا، ومن فلوريدا، ومن تكساس، من ماساشويتس . استخدموا أصواتاً خارقة لجدار الصوت للزيارة، وأطلقوا غازات الحرب الخانقة، والنابالم، والقنابل التقليدية . وأطفال فيتنام، بعيونهم السوداء، وشفاههم العابسة، وشعورهم السوداء والمنتصبة، سيديرون رؤوسهم ويقولون : " لا يستطيعون القيام بهذا . لا يمكن " .

سيجيبهم صانعو الأسلحة الأمريكية، وصناع الفولاذ، وتجار البترول، ومالكو السفن، ومليارديرات ديترويت :

" بل نستطيع فعل هذا . وهذا ما سيكون ."

والجنرالات في البنتاغون سيؤكدون هذا الجواب .

وشهر أطفال فيتنام السلاح، بعيونهم السوداء، وشفاههم المتدلية، وشعورهم السوداء والمنتصبة . الذين تتراوح أعمارهم بين

ثلاثة عشر عاماً، وأربعة عشر عاماً، وخمسة عشر عاماً، والستة عشر عاماً، والسبعة عشر عاماً.

وقف أمام هؤلاء الأطفال ست كتائب من الجند، يرتدون أحذية ذات أربطة متصالبة، ويعتمرون الخوذ الفولاذية ويحملون الأسلحة الأوتوماتيكية. وصلوا إلى دباباتهم، وحواماتهم، وأجهزهم اللاسلكية.

تقدم ثلاثمائة وخمسة وستين قلباً نحو العدو، وهم يزحفون ويجثمون، ويحتمون خلف القصب ويستخدمون شعاب الأرض. دون أثر لشارب على وجه أي واحد منهم. كانوا في سن الرشد عندما كان الأولاد يلعبون بالطوق والدحل. وفي الواقع، وقبل أن يجدوا وقتاً ليشبوا كأطفال، كان عليهم أن يشبوا عن الطوق كأبطال.

كانوا بأفضل حالاتهم في إطلاق النار. يفككون الدبابات ويعيدون تجميعها ويمتطون ظهورها، ويتقدمون صوب العدو. انطلقوا، وصبي في المقدمة يصفر بشفتيه، نزلوا إلى الأرض، واستعدوا لمواجهة رصاص العدو. وبدأت مضادات الدبابات لديهم بالهدير.

وبـدأت الأجهـزة اللاسـلكية في الوحـدات الأمريكيـة تعلـن بصوت عال :

" نحن لا حيلة لنا . أرسلوا لنا الطائرات ."

لـون آسـيا الأخـضر البعيـدة يغلـف الغابـة . هـذه الأرض هـي أرضـهم وهـم ينتمـون إلى هـذه الأرض . ثلاثـة عـشر، أربعـة عـشر، وخمـسة عـشر، وسـتة عـشر عامـاً أعمارهـم، لازالـوا يدمـدمون بشفاههم المتدلية :" لن يكون هذا ."

وفجـأة، أخـذت الـسماء ترعـد بالثـأر . وكغيـوم سـوداء، جـاءت طـائرات العـدو . تثـير الـصافرات المرعبـة هسهسة الثعبـان، وغبـاراً وأحجـاراً متطـايرةً، وقنابـل تمطـر كـالمطر . ومثـل بـوالين نزلـت مـن الحوامـات . إلى الأسـفل، إلى الأسـفل إلى الأسـفل . ومكعبـات مـن براميـل البـارود كانـت موجـودة في هـذه الحوامـات ومـشطت معـاً الأرض المزروعة بالقصب في الأسفل .

أسقط أحد الفتية طائرةً . وقعت على الأرض كزهور ربيع سقطت مـن بـراعم متفتحـة . واسـتمر القـصف، واسـتمرت نـيران المـدافع، وأجهزة العدو اللاسلكية ترسـل رسـالة تلـو أخـرى :"أرسـلوا إلينـا المزيد من الطائرات ... المزيد من الطائرات ....." .

وأبناء فيتنام - الذين تبلغ أعمارهم ثلاثة عشر عاماً، وسبعة عشر عاماً - لم يظهر عليهم الخوف، ولا الفزع. لم يتراجع أحدهم. بل على العكس، اندفعوا كلهم إلى الأمام بمزيد من السرعة، وهم يفتحون نار بنادقهم إلى أبعد مدى.

صمدوا كصخرة مدة ستة أيام، ستة أيام بأكملها. قاوموا ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وحتى بعد ستة أيام، لم يتراجعوا. ولم يستسلموا. بل ببساطة ماتوا، وهم يعانقون الأرض التي كانت لهم، متشبثين بها بأيديهم وقبضاتهم.

واخترقت عشرون رصاصة جسداً صغيراً، صغيراً جداً لفتى في الثالثة عشرة من عمره، الفتى ذي الحاجب المنشق. وأصابت قنبلة نابالم صبياً في السادسة عشر من عمره. وجثم جسده محترقاً، وخرج منه دخان على شكل دوائر. وسقط الأطفال بالعشرات، وأيديهم مرفوعة إلى الأعلى كأنهم يلوحون بها تلويحة الوداع الأخيرة لأمهم الأرض ثم سقطوا. كانوا وهم يسقطون على الأرض، كأن عاصفة ضربتهم. وحاولت بعض الرؤوس محاولة أخيرة للنهوض من مستنقعات الدم الضحلة التي وقعوا فيها، ليسقطوا أيضاً مرة أخرى في الدم نفسه، وإلى الأبد.

ومن بعيد، من بعيد جداً، تمتد غابات يغطيها اللون الأخضر الذي يميّز آسيا البعيدة. كانت السماء ملبدة بالغيوم. وفي منتصف الأرض امتدت مياه قذرة، وراكدة، مع أكوام وأكوام من القصب تنتصب في جميع الأنحاء.

ثم جاء الضباط الأمريكان، بأحذيتهم ذات ألأربطة المتصالبة. ألقوا نظرهم على أطفال فيتنام، الذين كانت أجسادهم حفراً، وملابسهم لم تكن سوى أسمال بالية. "إنهم كبار حتى يقتلوا، إنهم كبار حتى يقتلوا".

وأعد جنرالات البنتاغون الأوسمة لضباطهم المنتصرين. وأطفال فيتنام لا أوسمة لديهم حتى يتباهوا بها. وفي الحقيقة، لا يملكون شيئاً، سوى بطولاتهم ليتباهوا بها. كانوا أطفالاً دون طفولة. لقد عرفوا لتوهم أن أرضهم هي أرضهم وهم من هذه الأرض. وأرضهم هي كل ما يملكون، لقد قدموا حياتهم هدية، دون تردد، هؤلاء الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاثة عشر عاماً، وخمسة عشر عاماً، وستة عشر عاماً، وسبعة عشر عاماً.

* * *

غمامتا الحمار

شـيتين ألتـان

كان يا ما كان، مزرعة خضار تبعد مسافة طويلة عن البلد . وفي منتصف المزرعة مباشرة كانت هناك ناعورة صغيرة . وكان لدى صاحب المزرعة حمارٌ لا يفعل شيئاً سوى أن يدير هذه الناعورة . وكان يغطي عيني هذا الحمار بعصابة حتى لا يعرف الحمار أنه يدور ويدور في نفس المكان .

ويبقى هذا الحمار، من الصباح حتى المساء مربوطاً إلى الناعورة التي تصدر الصرير، وهو يدور ويدور حول نفس المكان . ويعتقد الحمار أنه يبتعد عن مكانه الذي هو فيه . وبقي سحرُ الوصول إلى مكان ما مشجعاً للحمار ليتحرك أسرع فأسرع . ومع استمرار حركة الحمار، ظلت الناعورة تدور، ومع دوران الناعورة، زوّدت المياه المتدفقة الباردة كالثلج الحقول .

تحرك يا عزيزي، تحرك!

وكان مالك المزرعة يستخدم مياه الناعورة لري حقوله التي تنتج كل أنواع الخضراوات. كان يزرع الباذنجان ذا الألوان البنفسجية الذي يبلغ طوله ذراعاً، والبندورة الحمراء الكبيرة، وأنواعاً أخرى من الخضراوات. والمساهم الأساسي الذي بسببه تنموا كل هذه الخضراوات حتى تصل أخيراً إلى حالة النضج الكامل وتصبح ذا مذاق رائع للمستهلكين، كان الماء الذي اعتاد الحمار أن يخرجه من الناعورة بالكدح يوماً في الداخل ويوماً في الخارج. والحمار المسكين، ومع العصابة التي تغطي عينيه، يبقى باستمرار تحت هاجس أنه يكد السير نحو مكان بعيد. وعلى ضوء سوء الفهم هذا، يستمر في الحركة الدائمة.

تحرك يا عزيزي، تحرك!

وفي صباح كل يوم، يشعر صاحب المزرعة بالحاجة إلى رؤية الباذنجان، والبندورة، والقرع، والخضار الأخرى، ناضجة وقد أصبحت ثقيلة بما فيه الكفاية حتى يتم قطفها. كان يقطف ويجمع كل الخضار الناضجة، ويعبئ السلال الكبيرة بالمحصول اليومي. والماء الذي كان يخرجه الحمار من الناعورة كان مناسباً إذ إن كل

الخضراوات التي نبتت في هذه المزرعة المميزة تباع كحلوى ساخنة في اللحظة التي تصل فيها إلى السوق . وهو ينظر إلى كل هذه السلال المملوءة تفرغ بسرعة كبيرة، ينفخ صاحب المزرعة مجة من لفافة تبغ، ويضع يده في جيبه ليتحسس النقود التي كسبها في ذلك اليوم، ويعود إلى منزله سعيداً . ويستمر الحمار في السير طوال الوقت، رأسه متدل وعقله منشغل بأحلام سعيدة .

تحرك يا عزيزي، تحرك !

وما طعامُ هذا الحمار؟ عشب أصفر اللون لا قيمة له من المزرعة . هذا كل ما لديه ليأكله لأنَّ صاحب المزرعة كريمٌ جدّاً يجمعه من هنا وهناك ويرميه أمام الحيوان . بالنسبة للمالك نفسه، سيقطف قسماً من المحصول اليومي من الخضار، ويرسله إلى منزله، ثم يستمتع بأكل الباذنجان، والبندورة، والفول، والقرع، وكل أنواع الخضار الأخرى . ويسكن في بعض الأحيان عقل صاحب المزرعة هاجس من الأفكار : " إذا ما عرف الحمار بطريقة ما أنه لا يسير إلى أي مكان في كل يوم، بل كل ما يفعله هو أن يدور ويدور في المكان نفسه، وأن كل هذه الخضراوات قد نمت بسبب الماء الذي يندفع من الناعورة، أنا متأكد عندها أنه سيرفض تناول

العشب الذي لا حياة فيه . وعندها سيبدأ بالمطالبة بحقوقه . وسيصر بالتأكيد على أن تكون له حصة في الخضار الطازجة من المزرعة".

وفي النهاية، صارت الأفكار تقلق صاحب المزرعة . وقال لنفسه :

" إنه حمار في النهاية . وفوق كل هذا، هناك عصابة على عينيه . فمن أين له أن يدرك الحقيقة؟"

وفي الواقع لم يكن الحمار مدركاً للحقيقة . كل همه كان في :

تحرك يا عزيزي، تحرك !

وفي يوم ما، تسلل ولد أزعر إلى هذه المزرعة . وللقيام بفعل مؤذ ليس إلا، قام بكل هدوء بإزاحة العصابة عن عيني الحمار دون أن يعرف صاحب المزرعة بذلك . نظر الحمار، وهو يتحرك، إلى يمينه، ثم إلى يساره . وبعد عدة دورات، اتضح له أنه يدور ويدور في نفس المكان طوال السنوات الماضية . شعر بالملل وتوقف فجأة . وعندما توقف، وصلت أصوات الناعورة إلى نهايتها . وعندما توقفت الناعورة عن إصدار موسيقاها المألوفة، توقف أيضاً تدفق الماء .

وكميـة المـاء التـي كانـت تـصل إلى حقـول البنـدورة الناميـة، والباذنجان، والقرع، والخضراوات الأخرى استمرت في التناقص حتى توقفت . وجفت أقنية المياه . وعندما رأى صاحب المزرعة ما آلت إليه الأمور، صرخ بغضب :

"اللعنة عليك، يا ذرية الحمير ... تحرك يا عزيزي، تحرك !"

اندفع وهو يحمل عصا ثقيلة بيده نحو الحمار، وضربه على ظهره، ثم على رأسه . ارتجف الحمار لكنه لم يتزحزح قيد أنملة عن المكان الذي يقف فيه . عندها أدرك صاحب المزرعة أن أحدهم قد فتح عيني الحمار على اتساعهما، وأن الحمار قد نظر ملياً إلى ما حوله . صرخ باشمئزاز :

" أي شخص عديم الحياء قد فعل هذا، أي وغد، أي ابن عاهرة ...؟" كان الولد الأزعر يراقب من بعيد، وهو يضحك من أعماق قلبه . وضع صاحب المزرعة العصابة مرة أخرى على عيني الحمار وأطلق صوتاً من عصاه . لم يجد الحمار في نهاية الأمر بديلاً سوى أن يبدأ السير من جديد، وطبعاً بازدراء شديد .

وإلى الآن، لا يزال الحمار يدور كل يوم من الصباح حتى وقت متأخر من الليل . وتابعت الناعورة دورانها كما في السابق . واستمر

الماء في التدفق وري حقول الخضار . ولكن الحمار أصبح الآن يعرف الحقيقة ويدركها . ويهرش من جانبه صاحب المزرعة رأسه وهو يفكر في أعماقه :

" أخيراً عرف هذا الحيوان البائس أن هذا الترف والنعيم هو بسبب كدحه " .

وتابع الحمار سيره في مساره، لكن كرهاً لا طوعاً . استمر الباذنجان، والبندورة، والقرع، والخضراوات الأخرى بالنمو والنضج كسابق عهدها باستثناء أن صاحب المزرعة راح يشكو أنها لم تعد طيبة ولذيذة كما كانت عليه .

تحرك يا عزيزي، تحرك !

* * *

مظفر بيويور كشو

يُعدُّ مظفر بيويور كشو أحد أهم كتاب القصة المعاصرين في تركيا. ولد مظفر في قرية نيجد عام ١٩٢٨ في أسرة فقيرة نسبياً. وعاش طفولته في ظروف مالية صعبة وقاسية. وعمل عاملاً لكي يكسب عيشه، عاملاً في المزارع منذ أن كان تلميذاً في المدرسة الابتدائية. وأجبره الفقر الذي كان يعاني منه أن يقطع دراسته وهو في المدرسة الثانوية..

عندما كان تلميذاً في استانبول، اضطر إلى مساعدة والده الذي كان يعمل بواباً في مكتب إحدى الصحف. وهكذا دخل عالم الكُتاب. بدأ مهنته الأدبية بكتابة الشعر والقصة القصيرة وآثر فيما بعد أن يتخصص في كتابة القصة القصيرة. نشرت قصصه في العديد من الصحف والمجلات. وإضافة إلى فوزه بالعديد من الجوائز الأدبية، تم تصنيفه كأكثر كتاب القصة القصيرة شعبية في تركيا عام ١٩٥٩.

يختار مظفر بيويور كشو موضوعات قصصه من حياة أصحاب الدخل المتدني المأساوية وظروف الحياة الصعبة والقاسية للذين يسكنون الأحياء الفقيرة جداً في استانبول. وهي الحياة التي كان قد عانى منها في سنوات حياته الأولى. وتعد كتاباته ذات واقعيةٍ مفرطة، وهي تعكس قوة ملاحظاته وسيادته في فن الوصف. وقصته " القطران" الموجودة في هذه المجموعة هي خير مثال على كتاباته.

القطران

مظفر بيويور كشو

كنت أسير كممثل سينمائي، اتخذ وضعيات لأجذب انتباه الناس من حولي. كانت السماء عابسة كأنها ستنفجر في أي لحظة. وكانت عاصفة من الغبار تهب كل دقيقة، تضرب، وتبعثر، وترحل بعيداً. يتغير الطقس فجأة، يسبب إثارة غير متوقعة بين الناس في المنطقة. وسواء أحببت هذا أم لا، تستطيع أن ترى وجهك معلقاً أمامك بمسافة سنتمترات. اعتراني إحساس غريب، مختلف تماماً عن تلك الأحاسيس التي كانت تعتريني في العادة. لم أعرف سببه. وهل كان وهماً أم حقيقة. ربّما كنت لا أختلف عن الرجل الذي كنت عليه البارحة، لكن ربما الخطوط التي تعلوا وجهي أصبحت أكثر تعقيداً، وأكثر اشمئزازاً.؟ ومع ذلك أعتقد أني تغيرت كثيراً. شعرت بالحرارة تنتقل من عيني إلى يدي، ومن يدي إلى الأرض.

بدا كأن العالم قد فصل نفسه عن الشمس اليوم فقط، وفراغه الهائل مـزين بـالألوان الزرقـاء، والبنفـسجية، والحمـراء، والرماديـة . لا أستطيع وصف هذا بـالكلمات، بـل هـي الـسعادة التـي تبـدو أنهـا تنتفخ كعجينة تختمر، كانت تستولد مني شيئاً كالحب للناس الـذين كـانوا يـسيرون قـربي . كانـت هـذه الـسعادة تحثنـي عـلى معـانقتهم، وضمهم، حتى لو كانوا أعدائي، حتـى لـو كنـت أقطـر دماً وبيـدي سكين . لدي آلاف الأذرع التي أردت أن أستخدمها لأضـمهم بهـا وأعـانقهم . كانـت ميـاه البحـر قلقـة، مـن المـد القـادم مـن الـيم . وفي الأعلى رعد . أصبح كل ما يحيط به داكناً تـارةً ولا معـاً تـارةً أخـرى . وفجـأة، راحـت الغيـوم تتـساقط مطـراً . وبـصعوبة كبـيرة، وجـدت ملاذاً تحت مزراب .

كان الجانب الآخـر . انهمر المطـر . واغتسلت الحـارة ونظفـت في غـضون دقيقتـين . وعـلى الجوانـب، يجـري المـاء الموحـل في جـداول . وكان الناس مشغولون بالحديث حول كـل الأمـور . أحـب هـذا . لا أستطيع أن أكون أحد هؤلاء المتورمي الرؤوس . لم أشعر بالاستياء . استمر هطول المطـر، وهُـرع النـاس شـذرَ مـذرَ، وجـوههم صـارت

صغيرة، ومملوءة بالتجاعيد، كل هذا بدا لي شيئاً رائعاً. لو كنت أعلم أنهم لن يضحكوا علي، قسماً بالله لكنت رميت نفسي تحت المطر حتى أتبلل من نعمة السماء. لكني أمسكت نفسي عن فعل ذلك. ولم أستطع أن أسألهم بماذا يفكر الآخرون عني. ولكني لم أستطع أن أسألهم لماذا عليهم التدخل، أو هل من المفروض بنا أن نتقيد بهم، أو فيما إذا كان لا يجب علينا أبداً أن نكون قادرين على العيش بحرية، نغني أغنية عن لوعة قلوبنا، أو أن نستخدم لغة بذيئة كلما أردنا ذلك. ثمة شيء ما يبقينا في موضع المراقبة. على الإنسان أن يكون حراً إلى درجة .... ولكن كل هذه الأفكار لا تخرج عن كونها مجرد أمنية. لقد أحكموا وثاقي، كما أحكموا وثاق ذاتي من أعماقها.

توقف المطر. وانقشعت الغيوم. وبزغت الشمس أولاً بوجه قاتم ثم أخذت في الإشراق. وفرغت المزاريب. وامتلأت الحارة مرة أخرى. بدأ الناس بالسير كأن شيئاً لم يكن.

استنشقت رائحة الأرض داخل رئتي كأني أمصها. كل شيء اغتسل بالمطر وأصبح نظيفاً. شاهدت كيف تعانقت الشمس

والأرض المبللة بالماء . غادرت الحارة ودخلت أحد الشوارع من المكان الذي كانت أصوات الضجيج تأتي منه . كانوا منشغلين بالدق على النحاس . كان لون شعور الرجال أخضر، وكذا كانَ لون أياديهم التي تمسك بالنحاس . كان هناك طفل يأكل الزيتون والخبز . كانوا يضغطون النحاس بالمدقات، يحاولون أن يمنحوه شكلاً ما . كان هناك رجل يجلس تحت شجرة مزهرة يصنع لفافة تبغ .

مر رجل أعرج . صاحوا به : " يا إبراهيم ..." . نظر إليهم إبراهيم ولم يقل شيئاً .

قال الرجل الذي يصنع لفافة تبغ : " أين كنت في الأيام الفائتة، أيها الوغد؟" . وأضاف أحدهم ملاحظاً :

" لقد تزوج ."

" من؟"

" إبراهيم، ومن غيره؟"

" بساقه العرجاء هذه؟"

" أعرج معرج ."

" أحقاُ، أيها الوغد؟"

نظر إبراهيم إليهم بغضب .

قال الرجل الذي يصنع لفافة تبغ :" تملك زوجته محلين ."

" آه لا ."

" ولكن كيف سَحَرَها؟"

" إنها عمياء، وحدباء ..."

ضحك الجميع من أعماق قلوبهم . ولم يضحك إبراهيم . التقط حصى ورماها عليهم . لحقوه . وعندما استدار من زاوية الشارع، سقطت من وجهه نقطة دم .

استقليت الترام . وإلى جانب ممر المشاة، كان هناك رجل يمسك بفتى عمره خمسة عشر عاماً ويعامله بخشونة . وكان الفتى، برأسه المحني إلى الأمام، يخفي وجهه بين يديه حتى يحمي نفسه من ضربات الرجل . وعندما سنحت الفرصة للرجل ليضربه، صفعه على وجهه عدة مرات، صفعة إثر أخرى . توقف المارة . أرادوا أولاً معرفة لماذا يضرب هذا الرجل الفتى ولماذا يبصق في وجهه . سألوا

بعضهم: " ماذا يحدث؟" أجاب الجميع: " لا نعرف، لماذا يضربه إذاً؟" وقال أحد العارفين بالأمر:

" كان الفتى يعمل صانعاً لدى هذا الرجل. أعطاه الرجل قطعة نقود من فئة المئة ليرة ليبحث عن الفراطة. أخذ الفتى المال واختفى. ولم يره حتى وقع بين يديه..." وقال رجل أشعث الشعر:

" لقد هدموا الكوخ الذي كان يسكن فيه هذا الفتى. وتشردت الأم وابنها في الشارع. وهذا الرجل هو خال الفتى. ذهب الفتى إليه وأخبره بما حدث. انزعج العم وقال للفتى إنه لو كانت أمه حسنة الخلق، لما طلقها زوجها.. وعندما سمع الفتى هذا الكلام، ضرب عمه على رأسه. وها هو الرجل يضربه جزاء ما فعل معه.

سأل أحد السادة الرجل:

" لماذا تضربه؟"

" وما شأنك أنت؟"

" ما شأني؟ هذا لا يحدث في الجبال التي لا تديرها الحكومة. إذا كنت مضطراً لضربه فافعل هذا في منزلك."

" إذا ما حول أحدهم حياتك إلى بؤس، فماذا تفعل معه؟"

" لن أتوقف عن ضربه طبعاً ."

" إذاً أنت تفهم ذلك؟"

اقتحم رجل شرطة الحشد :

" ماذا هنالك؟ ماذا يحدث؟"

قال الرجل : " هذا الفتى ... يا ..."

" نعم، ماذا فعل؟"

" إنه لص ."

أمسك الشرطي بالفتى من يده وهزه . ثم رمقه بنظرة قريبة .

" إذا هو لص؟ ماذا سرق؟"

" سجاد، ووسائد، ولحف . ومعطفي ."

" حقاً؟"

لم يتزحزح الفتى من مكانه .

استدار رجل الشرطة نحو الحشد :

" ما الأمر . هيا أيها الجمع . ليذهب كلٌّ إلى عمله ..."

انصرف معظم الحشد، كلٌّ في حال سبيله. وأمسك الشرطي بالفتى والرجل بينهما وذهبا بعيداً. تبعتهم.

سألته، "أيها الوغد، ماذا فعلت" لكنه لم يجب.

" هل سرقت شيئاً؟"

قال الشرطي: " لنرمي به الحفرة، عله يعود إلى رشده."

توقف الفتى. نظر إلى الشرطي. والدموع في عينيه. وشفتاه ترتجفان. أراد أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع. وأخيراً، لم يقل سوى هذه الكلمات فقط:

" لم أسرق شيئاً."

" إذاَ ماذا فعلت؟"

أحنى الفتى رأسه وأخذ يسير بخطى رشيقة.

دخلنا شارعاً غير معبد نشر فيه الغسيل على الأسلاك والأسيجة. وفي الشارع غير المعبد منازل يبلغ ارتفاعها أعلى من قامة الرجل بمرة ونصف. بني بعضها برقائق من الخشب، وغطيت أسقفها بأوراق مطلية بالقطران وبطانة الخشب. وحُجبت نوافذها بستائر من أقمشة مطبوعة، وطليت الأبواب بالألوان الخضراء ولون الأرض. كانت هناك أباريق، وعلب زيت

الكيروسين القصديرّية، وأكوام من الحطب .. ماعز، وخراف ... كان هناك رجل له شوارب يضع القطران على جراح حمار. وتحوم أسراب من الذباب حول جراحه. لم يتمكن الحمار من أن يبقى واقفاً دون حراك في مكانه. خرجت نسوة ذوات شعر أشعث وأكمامهن مرفوعة ولحقن بنا. لم يتكلمن... ووصل الطريق إلى نهايته. عبرنا حقلاً، نثرت على أحد جانبيه بذور الفول. وقفنا أمام مسكن، بحجم عش العصفور، بني من صفائح زيت الكيروسين. صنع بابه من أقفاص برتقال فارغة. سأل الشرطي الفتى بلهجة قاسية:

" هل خبأت الأشياء هنا؟"

دون أن ينبس ببنت شفة، فتح الفتى الباب ودخل. وأحنى الشرطي والرجل رأسيهما قبل أن يتمكنا من الدخول. كان هناك طفل يرتدي أسمالاً بالية يرقد منبطحاً في السرير. عانقه الفتى وراح يبكي. كان هناك بساط مفروش على الأرض. أما اللحاف فكان قديماً. وكانت عينا الطفل المستلقي على السرير تجحظان في السقف. يداه نحيفتان، عظامهما ناتئة. كان الطفل يمسك بهاتين اليدين ويضغط عليهما، وهو يحاول أن يقول للفتى شيئاً ما. لم يتحرك هذا الأخير. تحول لون شفتيه

إلى اللون الأبيض وراحتا ترتعشان بعنف . وفي الزاوية هناك صحن فيه بقايا طعام، ومقلاة، وملعقة . وبعض من الدراق نصفه عفن موضوع على الجانب الأيمن من الطفل .

نظر الشرطي إلى الرجل الذي كان يقف بصلابة . كان الطفل يبكي . سحب اللحاف، ودفع بالمعطف، وبرفسة واحدة، جعلهما يطيران إلى الباب . نظر نظرة غاضبة إلى الشرطي ثم إلى الرجل . ركع الرجل على ركبته، التقط اللحاف والبساط، وحملهما على كتفه . كان الشرطي ما يزال ينظر إلى الرجل . كنت أتوقع منه أن يقول شيئاً لهذا الأخير . أزاح الرجل اللحاف والبساط من على ظهره وضعها على الأرض . وبوجه بارد كالثلج، خرج . تبادلا نظرات ذات معنى . تبعه الشرطي، وتأبطه، وهمسا لبعضهما شيئاً، وخرجا .

لم أتبعهما . . . بل توقفت قرب الرجل الذي كان يضع القطران على جروح الحمار . قدمت إليه لفافة تبغ . نظر إلى وجهي مرة، وضع على الأرض القدر الذي فيه القطران، وراح يزيل عن يديه القطران العالق بوبر الحمار، أمسك بلفافة التبغ، وقال :

" إنه حيوان لكن المرء يشعر بالشفقة عليه ."

* * *

باكيــر يلــدز

يُعـدٌ بـاكير يلـدز أحـد الكتـاب المعاصـرين المـشهورين في جمهورية تـركيا، ولد في حران أورفا عام ١٩٣٣. تلقـى تعليمـه في مدرسـة عمـال الطباعـة والـصحافة في اسـتانبول ثـم تـابع تحـصيله العلمـي في ألمانيـا. وخـلال إقامتـه في ألمانيـا الـتي اسـتمرت أربعـة أعـوام، عمـل في العديـد مـن المـصانع والصحف. عندما عاد إلى تركيا، أسس دار نشر خاصة به في استانبول حيث استمر في العمل حتى وفاته عام ١٩٩٨.

يعدٌ يلديز كاتب قصة قصيرة لكنه إضافة إلى ذلك كتب الروايـة والمـسرحيات. وتجنـب اسـتخدام الجمـل المعقـدة في قصصه. ومواضيع كتاباته تتعلق بالحياة ومشاكل النـاس في أورفه. أحب أن يقتحم أرضاً نضرة بالكتابة في موضوعات لم يكتشفها أحد. نال على كتاباته جوائز أدبية محلية وعالمية.

جريمة شرف

باكير يلدز

أرسل الله ذات يوم، طفلة إلى هذا العالم في وادي حوران في أورفه . ولدت هذه الطفلة في كومة من سيقان القمح المحصود حديثاً . وتردد صدى أنين المرأة في أنحاء الوادي الذي ينتشر كما البحر الواسع . وجرى زوجها ما إن سمع صراخ زوجته من مكان بعيد، وصرخ بها قائلاً :

" لماذا تعوين هكذا كالكلب؟"

كانت المرأة تجلس على الأرض على فخذيها، وترتاح على يديها . لم تستطع إلاّ أن تقول :

" أنا ألد طفلاً . إنه تحت ردائي ."

" أنـت تـصرخين كـأن أحـداً يغتـصبك . أزيحـي رداءك لنـرَ . إنـه ولد، إن شاء الله" .

حـاول الـزوج وزوجتـه جاهـدين فـترة مـن الوقـت فـك العقـد الكثيرة في الحبل الذي يربط الرداء بجسدها . حمل الـزوج الطفلـة . لم يجد ما يدل على أنه ذكر . نظر نظرة عدائية إلى زوجته وقال :

" عليك اللعنة ! بنت، ها؟"

قالت المرأة بخجل : " هل هذا ذنبي؟ أيجب أن يكون ولداً في كل مرة؟"

" وهل كنت ستموتين لو كان ذكراً ؟ لقـد جعلتنـي أشـنق رأسي خجلاً أمام أهل القرية . ذرية الرجل يجب أن تكون ذكـوراً، ودائـماً . ماذا سنفعل بالبنت؟ هذه ليست بنتاً بل لعنـة حلـت علينـا كلنـا مـن الآن فصاعداً؟"

وخلال ذلك الوقت، وتحـت الـشمس الحارقـة الـساطعة في كبـد السماء، كانت التي تسمى بـ " هبـة الله" تبكـي دون انقطـاع . وسـواء أكان المولود ولداً أم بنتاً، قدمت هذه الروح الضعيفة إلى هـذا العـالم لتعيش على ألأرض، في حضن وادي حوران في أورفه .

وأصبحت الطفلة فتاة، وراحت تلعب فوق أكوام التراب صيفاً وفي بحر من الوحل شتاءً. وأمضت هذه الأخت لأخين حياتها في منزلهما كيتيمة. لم ترتكب خطأ إلاّ أنها بنت. وما هو عمرها الآن، هذا ما لا يعرفه أباها. أما أمها فكانت تخمن وتقول: " مضى ثلاثة عشر عاماً منذ أن سقطت فاطمة داخل ردائي".

وفي أحد الأيام كانت فاطمة مع أبيها، وكانت تعد العدة لتذهب إلى الحقول، لتحمل الطعام إلى أخويها. أوقفتها أمها، وقالت لها: " توقفي، لا تستطيعين التجول هنا وهناك بهذا الرداء العريض، خذي جلبابي هذا واجعليه حول جسدك قبل أن تخطي خطوة واحدة من هذا المنزل".

" ولكن يا أمي، لم ترتدِ الفتيات اللواتي هن في مثل عمري الجلباب بعد".

" لن تكوني نسخة عنهن من الآن وصاعداً. وتذكري، كلما صنت شرفك، كلما كافأك الله بالرزق. وإذا ما اتخذت المبادرة الأولى، اكتسبت سمعة طيبة."

وطوعاً وكرهاً، قامت فاطمة بارتداء ذلك " الجلباب الأسود"، الذي كان كبيراً عليها. قالت: " يا أمي، إنه كبير علي جداً."

" عندما ارتديت الجلباب أوّلَ مرة، كان كبيراً علي جداً. هذا الإحساس يعتريك في البداية. وفيما يتعلق بالشرف، على الفتيات أن يتبعن خطوات أمهاتهن. هل تظنين أنك سترتدين الجلباب عندما تصبحين كبيرة في مثل عمري الآن؟ أعرف كيف أحل مشكلتك."

وبهذا الكلام، أمسكت بالقسم الفائض من الجلباب، رفعته إلى الحزام على خصر فاطمة، وقالت: " هكذا. أصبح طول الجلباب مناسباً، لم يعد عريضاً. هذا ينبهني إلى شي، يجب عليك أيضاً أن تغطي وجهك. هيا، أرخي الحجاب حتى تغطي وجهك."

أرخت فاطمة الحجاب. بعد أن خرجت من ظلمة رحم أمها، أصبح العالم مرة أخرى شديد السواد بالنسبة إليها: " يا أمي، لا أبدو جميلة أبداً في هذا الثوب الغريب. كيف أستطيع مواجهة العالم بهذا الزي؟"

" فلتموتي، أيتها البنت؛ الجلباب هو رمز الحظ الجيد للمرأة التي ترتديه، إذ ما كانت البنت تملك قلباً شجاعاً، فالعالم غير موجود بالنسبة إليها إن لم يكن يعنيها".

أمسكت فاطمة تحت إبطها بالصرة التي فيها الطعام وخرجت. كانت تتمايل في مشيتها كبكرة. كانت الأرض تحت قدميها تتشقق من شدة الحر. والممر الذي كانت تطأه بقدميها بمرح حتى يوم أمس، أصبح الآن لا يحمل سوى ظلها. ظل هذا الجمال الناعم الذي يشبه لب البصلة يتدحرج على الأرض بعد أن خرج بعد ضربة قوية.

في ذات يوم، اخترقت ملامح عثمان المشرقة عيني فاطمة وهي ترمقه بنظرة هيام تحت الحجاب. لم يسبق لها أن عرفت حقيقة وجه عثمان الفاتن. ربما، وهي تحضر الماء من البئر أو وهي عائدة من منزل الجيران رمقته فلمحته. واليوم عندما نظرت إليه عن قرب، لعب القدر لعبته. دخلت ملامح عثمان الفاتنة مباشرة من عيني فاطمة إلى قلبها. ولم يعد قلبها لها، لقد أودعته إلى عثمان.

في يوم من أيام العيد، كانت فاطمة تمر من أرض اجتماع القرية عندما مرت قرب عثمان. اعترض الاثنان طريق بعضهما. وبغواية من الشيطان، استدارت فاطمة بعد أن ابتعدت خطوات قليلة. رد عثمان المجاملة بمثلها. ارتعدت فاطمة خوفاً. استدارت دون أن

تنبس ببنت شفة، وعادت إلى الطريق الذي كانت تقصده. وراح عثمان يتساءل من تكون هذه الفتاة وابنة من هي. وراحت عيناه تشيعان فاطمة. وعندما دخلت منزلها، عرف أنها فاطمة. هكذا ابتدأ الحب عند فاطمة ومدّ جذوره في قلبها.

بعد بضعة أشهر، ذهب عثمان لتأدية الخدمة الإلزامية. كان حينها واقعاً في حب فاطمة الذي يفطر فؤاده. وقبل أن تصل أخبار وصول عثمان إلى مقصده في القرية، كان والد فاطمة قد أعطى كلمة لزواجها من مرتضى. وفيما يلي كيف طرحت الأم هذه الحقيقة لابنتها:

" هل تعرفين، يا ابنتي، أنه منذ زمن طويل تمت خطبتك على مرتضى؟"

ارتجفت شفتا فاطمة. أحست أن قلبها يضيع." ومن هو مرتضى؟"

نهرتها أمها بعنف وقسوة، وقالت لها:" ولماذا تريدين أن تعرفي، أيتها الفتاة التي لا تعرف الحياء؟ في زماننا، عندما كانوا يقولون للفتاة إنها ستتزوج هذا أو هذا من الرجال، كانت تبحث عن مكان

تدفن فيه نفسها. من مرتضى؟ حسنُ، لا يمكن أن يكون أيَّ شيء عدا عن أنه رجل."

" ولكن يا أمي...."

عندما أدركت أمها أنّها بدل أن تشعر بالخجل، وقفت فاطمة أمام أمها ثابتة كعصا، وحاولت أن تناقشها، انفجرت غاضبة، وضربت ابنتها على صدرها بكل قوتها، وصرخت بها:

" إذا ما تجرأت وفتحت فمك مرة أخرى، سأضع في لسانك عقرباً حياً."

ابتعدت فاطمة، مطرقة الرأس، إلى الطاولة. جلست هناك في الزاوية، وراحت تندبُ حظها العاثر. قالت لنفسها وهي مستغرقة في التفكير: " ماذا لو أن عثمان عاد إلى القرية في هذه الساعة، وشهر مسدسه، وأخذني بعيداً عن هذه القرية،"... وفجأة قفزت من مكانها عندما سمعت شيئاً ينسل قربها. أكان ثعباناً أم عقرباً؟ وقفت وهي تتساءل للحظة. قالت لنفسها: " هيا تعال وعضني. عضني حتى أموت ميتة غير طبيعية." جثمت على الأرض مرة أخرى. وبقيت برهة، لم تبك فيها ولم تفكر فِي أي شيء.

غـادرت فاطمـة منزلهـا، وهـي ترتـدي ثـوب العـروس .... ومـر أسـبوع عـصيب منـذ أن ضـمها مرتـضى إلى صـدره، نـادى فاطمـة وأخبرها أن تعد له حصانه ليكون جاهزاً للمغادرة. كانت الوقت مساء عندما غادر آخر شعاع للشمس القرية.

قالت له مستفسرة: " أيـن أنـت ذاهـب في مثـل هـذا الوقـت مـن اليوم؟"

" انظري إلي، يا سيدتي؟ دعيني أقـول لـك سراً. كتـب القـدرعلي أن أكـسب عيـشي في أرض سـوريا. بمعنـى آخـر، مهنتـي هـي التهريب. والموت يلاحقني كظلي طوال الوقت. وابتداءَ من هذه اللحظة، اعلمي، أنك زوجة مهرب. وإذا ما أغار أحد على هذا المنزل، وسألك أحد ما عني، كوني شجاعة وقولي لهم إني خرجت لأحضر عرساً في مكان ما. وإذا سألوك " عرس من؟" قـولي لهـم دون أي تـردد أن المـرأة لا يحـق لهـا أن تـسأل زوجهـا عـرس مـن سيحضر. وفي كـل مـرة أخـرج فيهـا، سـأعود بعـد مـرور شروقـي شمس من رحيلي. وإذا لم أعد، فاعلمي أني نصف ميت."

جف لسان فاطمة تماماً. ومرت دقيقـة، لم تـستطع فيهـا أن تتفـوه بكلمة واحدة. ثم استجمعت شجاعتها وسألته:

" يا آغا، عندما قلت نصف ميت، ماذا كنت تعني فعلاً؟"

" للمهرب أربعين حياة . يموت المهرب بصعوبة . قد نصاب بالجراح ولكن نادراً ما نموت . وكوني نصف ميت يعني أني جرحت . وإذا ما جرحت، انتظري عودة حصاني . ففيه من الدهاء ما يكفي ليعرف مكان المنزل" .

أمسك مرتضى بعنان فرسه واختفى في ظلمة الليل . بقيت فاطمة تشيعه بعينيها .

لم يكن النهار قد بزغ فجره عندما بدأت الدِّيكة بالصياح . استيقظت فاطمة عندما سمعت نهيق حمار يمر من الوادي . عندما أصبحت الشمس على بعد رمحين، قرع الباب . سألت فاطمة بخوف شديد، " من هناك؟ ما ذا تريد؟"

" أنا عثمان . افتحي الباب ."

راح قلب فاطمة يخفق بسرعة . ودون أن تفكر ولو للحظة واحدة، فتحت الباب . دخل عثمان . ارتعدت فاطمة . وكل ما استطاعت قوله : " لكنك ذهبت لأداء الخدمة الإلزامية ."

أجابها عثمان : " عدت يوم أمس فقط . لدي شيئاً أقوله لك . قولي لي إن زوجك قد قتل ... علمت أنه مهرب ... ولا أحد يعرف كم يعيش المهرب ... فهمت ما أقول؟"

في هذه اللحظة بالذات، كان هناك طرق ثقيل متعاقب على الباب . أحست فاطمة كأن قلبها اقتلع من مكانه . قالت مفكرة : " يا إلهي، هذا مصطفى . هذه نهايتي ." صُدم عثمان، وقال لها : " خبئيني، أرجوك خبئيني في مكان ما،"

دخل الاثنان الغرفة . غطى عثمان نفسه بحصيرة كانت ممتدة على الأرض . رفعت فاطمة هذه الحصيرة الثقيلة ووضعتها قرب الحائط عند الزاوية . وهرعت مسرعة كعاصفة لتفتح الباب . قال مرتضى عندما دخل :

" وضعوا ألغاماً قرب الحدود، بمعنى آخر رشوا خبزنا بالدم ."

شحب وجه فاطمة . لم تستطع الكلام . دخلا الغرفة . عندما لا حظ أن الأرض دون الحصيرة كما هي العادة، جال مرتضى ببصره في أرجاء الغرفة . وفي اللحظة التي رأى فيها الحصيرة الملفوفة مكومة قرب الحائط، تغير لون وجهه . لقد رأى قدمي إنسان تخرجان من الحصيرة .

قال بصوت كالرعدً : " من ابن الكافر هذا؟"

ارتجفت فاطمة خوفاً . " حياتي فداك يا آغا، لم نرتكب إثماً، أو خطيئة ...... "

وقبل أن تكمل جملتها، أمسك مرتضى بالبندقية التي يحملها على كتفه، ووجه ماسورة البندقية نحو الحصيرة، وحول الشيء المسكين الذي في داخلها إلى منخل من الأعلى حتى ألأسفل . وصرخت فاطمة ناحبة وهزت بصراخها القرية بأسرها . لم يستطع عثمان المسكين، وهو ملفوف داخل الحصيرة، أن ينطق حتى كلمة أوف قبل أن يموت . وعندما فُتحت الحصيرة من تلقاء نفسها، كان جسده يغتسل بالدم الذي بدأ يسيل على الأرض .

عندما سمع أهل القرية صوت البندقية ونحيب فاطمة، راح الناس يحتشدون حول المكان . فتحوا الباب بالقوة ودخلوا باحة المنزل . وقف مرتضى في منتصف الباب المؤدي إلى الغرفة، وهو يمسك بالبندقية بيده . وقبل أن يستطيع القرويون قول شيء، صاح مرتضى كالمسعور :

" لم يمض على زواجها عام وها هي ذي، تخفي عشيقها في هذا المنزل . ابنة المومس ! لن أرتاح حتى أغسل شرفي من وصمة العار

هـذه . لقـد أرسـلت هـذا النـذل إلى جهـنم . والآن حـان دور هـذه العاهرة . من سيقف في طريقي، لن أوفر أمه ولا أخته من . . . ."

تقدم رجل من الحشد ووقف أمـام مرتـضى وجهـاً لوجـه . صرخ قـائلاً : " هـذا واجبـي، سـأدعك تقاسـمني هـذا الـشرف . بـما أني أخ هذه الفتاة التعسة، عليك أن تسلمني إياها . "

أمسك الأخ الأكـبر فاطمـة مـن يـديها وجرهـا إلى منزلـه . وتـردد صدى صراخ فاطمة الذي يقطع الفـؤاد في آذان النـاس ورج عويـل أمها القرية بأكملها .

وفـور وصـولهم إلى المنـزل، ذبحهـا أخوهـا بـسكين وقطـع يـدها اليمنى التـي فتحـت بهـا بـاب منزلهـا لعـشيقها . ثـم، وبهـدوء كامـل، ذهب من باحة الدار إلى الغرفة وخرج ومعه رمـح هـو رمـز قبيلتـه . غـرز الـرمح في الأرض أمـام منـزلهم ثـم غـرز في نـصله يـد فاطمـة المقطوعـة . والآن، بالنـسبة لأخ فاطمـة الأكـبر، أصـبح لهـذا الـرمح قداسةً أكثر من قداسة راية استولوا عليها من العدو في الحرب .

وهكذا، أصـبح مـوت فاطمـة أكثـر تـأثيراً وفاعليـة لعائلتهـا مـن وصولها إلى هذا العالم .

* * *

مصطفى مياس أوغلو

ولد مصطفى مياس أوغلو، وهو من عهد الجمهورية، في قيصري عام ١٩٤٦. بعد أن أكمل تعليمه الابتدائي، التحق بجامعة استانبول كلية اللغة والأدب عام ١٩٦٧. بعد تخرجه، عمل عدة سنوات كمدرس للأدب في العديد من المدارس الثانوية، وتم تعيينه بعد ذلك في جامعة معمار سنان، استانبول، معلماً للغة التركية. وخلال تعيينه هذا تم إيفاده إلى الباكستان لتدريس اللغة والثقافة التركية في معهد اللغات الحديثة في إسلام آباد، حيث بقي مدة أربع سنوات (١٩٨٨ - ١٩٩٢). ولكي يكرس نفسه كلية لأدبه، وللثقافة، وأنشطة البحث، غادر جامعة سنان متقاعداً عام ١٩٩٨.

وجنباً إلى جنب مع مهنته كمدرس، كان مصطفى مياس أوغلو يساهم مساهمة كبيرة في الأدب التركي منذ عام ١٩٦٨. وظهرت مساهماته في العديد من الصحف والمجلات

في بعض صحف المدن الرئيسة. كما أعد بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية والنشرات الأدبية السنوية. كما قدمت بعض مسرحياته على خشبة المسرح في استانبول.

يُعدُ مياسوغلو روائياً في المقام ألأول لكنه كتب أيضاً الشعر، والقصة القصيرة، والمسرحيات، والمقالات، والنقد الأدبي. وفي رصيده عشرون كتاباً، خمسة منها في الشعر، وخمسة منها في الرواية، ومجموعتان في القصة القصيرة وخمسة كتب في المقالة، وثلاث مسرحيات، وما تبقى يدور حول موضوعات أخرى عديدة. وكانت بعض أعماله موضوعاً لأبحاث جامعية، وترجم عدد منها إلى لغات أخرى ونشرت خارج تركيا. كما ترجمت بعض قصصه القصيرة وأشعاره إلى لغات أخرى، بما فيها العربية، والإنكليزية والأردية.

فاز مصطفى مياس أوغلو على جائزتين أدبيتين من أمانة الثقافة التركية. كما أعلن عنه ككاتب روائي للعام ١٩٨٠ وعام ١٩٩٥ من قبل نقابة الكتاب الأتراك، لاثنتين من رواياته.

النبي الخامس

مصطفى مياس أوغلو

جاءني شقيق زوجتي، الذي كان يحاول منذ فترة طويلة أن يسرد عليَّ قصة على الهاتف، لأنه أعتقد أن سحر القصة سيضيع إذا ما رويت عبر الهاتف. قال إن ما سيرويه ببساطة لا يصدّق، هو في الواقع موضوع رائع يدور حول قصة حب رائعة، وكيف ومن أين سيبدأ بها. تغلب نهائياً على فرحه عندما حول موضوع النقاش إلى المشاركة في حقوق النشر للرواية المقترحة. ومن هذه الناحية، تنطحت زوجتي قائلة:

" هل تعتقد أن زوجي يجد صعوبة في إيجاد موضوعاتٍ لرواياته؟ لماذا لا تكتبها بنفسك، إذا كانت بكل هذه الروعة والدهشة؟"

أجابها : " رحم الله امرئ عرف حده . على أي حال، هل ينبغي علي أن أمسك بقلم بيدي أمام شقيق زوجتي؟ أو ربما أستطيع أن أمليها على حالوق وأجعله يكتبها عني، ولكن عندها لكن تكون رواية ..."

" إذاً؟ ... هذا يعني أن القصة هي قصتك لكنك يبدو أنك قلق من الناحية المادية ...."

قلت : " حسنٌ، حسنٌ . هيا، يا عزيزي، اروها على مسامعي . لا بد أن فرحتك قد انتهت، كما أعتقد ...."

" نعم، لكن يا زوج أختي العزيز، لا أستطيع فتح فمي حتى تعد لي أختي فنجاناً من الشاي . علي مقدماً أن ...."

قالت أخته، وهي تعرف أنه يريد كسب المزيد من الوقت قبل أن يبدأ قصته : " هيا، هيا يا أخي . لقد وضعت الإبريق على النار منذ فترة . وسيغلي الماء قبل أن تنهي طعامك . تتظاهر كأنك لا تعرف زوجي . هل من الممكن في هذا المنزل ألا يتم تناول الشاي بعد الطعام؟"

قال طاهر : " هذا رائع . أحضري إبريق الشاي إلى هنا حتى لا تضطري إلى الذهاب والإياب حتى تقدمي الشاي ... فالقصة لن تهرب ..."

تلون وجهه بالأحمر . لم يكن يعرف من أين يبدأ .

قلت له، : " أستطيع أن أساعدك قليلاً إن أردت . أخبرني، هل حالوق متزوج أم عزب؟"

"هو عَزَب" .

" ومن أين هو؟"

" من استانبول ."

" ومن أين هاجرت أسرته إلى استانبول؟"

" هذا ما لا أعرفه . ليس لديه أقارب . وهو يعيش في متجر ."

" في متجرك، أليس كذلك؟ أعني في مشغلك؟"

" نعم . هناك فراش نابضي موضوع له في الزاوية . ووضعنا ستارة خلف المحل الذي نستخدمه كمشغل . وهو يمضي الليل هناك . والمرأة التي يحبها متزوجة . ولديها طفل أيضاً . . . ."

قالت زوجتي وهي تقدم الشاي : " حقاً؟" ثم أضافت قائلة : " وهل الطفل من هذا الرجل؟"

" كلا، الطفل من زوجها . وفوق كل هذا، المرأة مريضة . وهل تعرفان ما هو مرضها؟ السرطان ؛ حالة ميئوس منها . . . ."

صمت الجميع لوهلة. لقد أصبحت القصة واضحة للعيان. وبما أن طاهر نفسه لم يكن ناجحاً في اكتساب من يحب، كان يبحث عن موضوع عاطفي. كان ينظر إلى صديقه على أنه بطل خيالي لأنه أحب امرأة لديها طفل وتعاني من مرض عضال. كان طاهر يرتشف الشاي بيد واحدة وباليد الآخرى يصف كل الجهود التي يبذلها حالوق لمعالجة المرأة. تأخر الوقت، في ليلة الصيف هذه. وكان طاهر يتصبب عرقاً. أصبح الجو بالنسبة إلي خانقاً. وأصاب زوجتي الإعياء أيضاً.

مهما يكن ما رواه طاهر حول رجل أمضى من عمره ٣٥ عاماً وهو يحب امرأة متزوجة ومصابة بمرض عضال ولديها طفل، كانت رواية غير طبيعية، علاقة حب مميزة في أحياء يقطنها أناس ينتمون إلى أناس الدخل المتدني.

سألته: " غوغوش، أي جزء من هذه القصة هو خيالي؟"

" أليست خيالاً، يا زوج أختي؟" واللهجة التي سألني فيها طاهر هذا السؤال بينت لي أن ظنه قد خاب..

لم تستطع زوجتي مقاومة التنطح مرة أخرى، فسألته: " وأين هو زوج هذه المرأة؟ وهل انسحب ورحل؟"

" كلا، إنه يجلس كثيراً في المنزل ."

" حسنٌ، إذاً كيف يلتقيان ببعضهما؟ وكيف يرتب حالوق موضوع المعالجة الطبية؟"

" اتصلت المرأة بحالوق بعد أن غادر زوجها المنزل . تحدثا على الهاتف وقررا أين ومتى سيلتقيان . في بعض الأحيان، ودون مكالمات هاتفية، كان يذهب إلى الشارع حيث تعيش المرأة . ينتظر هناك حتى يغادر زوج المرأة المنزل ثم يدخل ....."

أحسست كأن مطرقة ضربت رأسي !

بما أن متجر طاهر للأثاث يقع حي فقير من المدينة، وبما أنه الشاهد الدائم للقصص التي غالباً ما نقرأها في الصحف، كان واقعاً تحت تأثير أنه وجد موضوعاً رائعاً للرواية، وهو يعرف قليلاً أنها لا تعدو في الواقع عن كونها مجرد ترهات . والجزء المضحك في كل هذا الموضوع أنه لم يشك أبدا أنه سيبتلع ما يلفقه كعلاقة حب وقضية التضحية بالذات . والأهم من هذا وذاك، اعتقد، ربما عن إيمان جيد، أنه سيكون عوناً في هذا الموضوع .

" اسمعني، يا أخي غوغش ! مهما كان ما يفعله هذا الرجل فهو عبارة عن عمل مخز ومعيب، لا شيء آخر . الحب والتضحية

استغلا كمسوغ ليس إلا . وإذا ما عرف زوج المرأة، فسيبلغ به الحال إلى أن يحرق متجرك ومشغلك . وفوق كل هذا، بالنسبة إليه هذه قضية شرف واحترام ."

قالت زوجتي : " ربما يعرف الرجل هذا . كلاهما يريدان نهب طاهر ... هذا واضح وضوح الشمس . إذا استخدم أحد كلمات مثل " الحب" و" التضحية" كخدعة، فلن يتردد في تقديم كل ما يملكه ... حتى لو لم يكن هناك شيء بين يديه، فسيحصل عليه من هنا وهناك ويقدمه لهم ...."

سادت فترة من الصمت . بقي فيها طاهر متحرراً من الوهم :" ألا توجد مادة في هذه القصة، يا أخي؟ في الواقع أنا ...."

" في الواقع، القصة كلها، الشخص الذي يفاجئك فيها هو أنت؟ أخبرني، أين أنت من كل هذا؟"

" بقدر ما أنا قلق، لم أستطع أن لا أهتم . تركتهم يفعلان ما يحلو لهما . لا عمل لي مع حالوق . ومهما كان الذي يقوم به في المتجر، فهو يدفع لي الأجر نفسه . وفي بعض الأحيان، يساعدني أيضاً في عملي . هذا كل ما هنالك ."

لم تكن هذه هي القصة فعلاً. فمن يقترب من طاهر، سيحرم هذا الشخص من كل ما يملك. وهذا ما يحدث له دائماً. أفضل ما يمكن القيام به في هذه القضية هو التخلص من حالوق.

مهما يكن الأمرُ الذي قمنا به وأياً يكن التوجه الذي اخترناه، إلا أننا لم نستطع إقناع طاهر. يبدو أنه حصل على رأي واحد واستقر في عقله لا يتزعزع وهو في أننا لا نولي أي اهتمام لهذه القصة. كان مقتنعاً أنه لا توجد إمكانية أن يؤذيه أحد من طرف حالوق. وفي إحدى المناسبات في إحدى الأمسيات، أراد الاتصال بحالوق هاتفياً ليعطيه بعض التعليمات فيما يخص بعض الأعمال التي يريد طاهر أن تتم صباح اليوم التالي. أراد أن يقول لحالوق أنه هو نفسه سيتأخر عن العمل اليوم التالي وأنه سيوكل العمل إلى الغلام، وأنه عليه أن يتأكد إذا كان سيرى المرأة، ولن تتأخر الأعمال التي بين يديه. حاول طاهر عدة مرات الاتصال بحالوق هاتفياً ولكن في كل مرة كان يجد فيها الهاتف مشغولاً. وأخيراً، وبعد أربعين دقيقة بالتمام والكمال، أجاب حالوق من الجانب الآخر، وطبعاً قام هذا الفتى بصب جام غضبه عليه.

" مـع مـن كنـت تتحـدث لـساعة مـن الـزمن؟ كـان الخـط مشغولاً ...."

لا نعرف ماذا قال حالوق من الجانب الآخـر وكيف تتـدبر أمـره ليقنع طاهر، ولكن يبـدو أن هـذا ألأخـير قـد هـدأ غـضبه بعـد فـترة وقال لحالوق الأمور التي يريد منه القيام بها .

لقـد أسـس طـاهر مـشغله بعـدما تغلـب عـلى ألـف صـعوبة وصـعوبة . وكـي يـدفع أقـساط الآلـة، كـان عليـه أن ينتقـل إلى حـي فقـير . ولكـن انظـر مـاذا فعـل . قـام أولاً بـدخول شراكـة مـع رجـل متزوج مرتين، ثم اشترى لنفسه شيئاً مزعجاً يـدعى حـالوق . ومـع ذلـك، كـان يـصر دائـماً، أنـه لـن يـصاب بـأيّ ضرر مـن هـذين الشخصين . وكـان المتجـر والمشغل يقعـان بعيـداً عنا وبـما أن شـقيق زوجتـي يعـرف تمـام المعرفـة الوضـع لأنـه كـان يراقـب ألأمـور مـن أحيـاء أكثـر قربـاً . ومهـما قـال عـن الحاجـة إلى الـتخلص مـن هـذين الشخصين، وبغض النظر عـن مـدى غـضبه، إلا أن طـاهر لم يلحـظ هذا لأنه بدا عليه انـه مـصمم عـلى الاسـتمرار بـالطريق الـذي يـدير فيها مؤسسته . لقد خطط لأن يتزوج بعد أن يسدد كل قروضه .

وكنت مقتنعاً تماماً أن طاهر سيقع في المشاكل بسبب وجود هذين الشخصين حوله . ونصحته بأنه لا يوجد لديه بديل آخر سوى الانتقال من الحي الذي يعمل فيه . ولكن ذهب كل هذا عبثاً لأنه لم يكن يستمع إلى أحد .

وفي ذات يوم، صدف أن ذهبت إليه إلى المحل . كنت أريد أن أعطيه تفاصيل عن رفِّ كتب أريده في منزلي . كان الرجل المتزوج مرتين مع ابنه يعملان كالمجانين، بينما الرجل الذي يدعى حالوق وشقيق زوجتي كانا منشغلين بالاستمتاع بتبادل ألأحاديث الودية . كلاهما عاشقان، لا بد أن لديهما الكثير من الأمور ليناقشاها . ألقيت السلام عليهما، فقفزا على أقدامهما وهما يشعران بالإحراج . لم يكن في المحل بضائع للبيع . حتى لو كان هناك شيء، فلا أظن أن أحداً سيتحمل مشقة الذهاب خارج الحي ليشتريه . لم يكن في المحل، أخشاب ليعمل بها، ولا أي عمل معلق . بل كلُّ ما كان هناك قطع من الخشب يستخدمونها للمدفأة، التي يجلسان حولها، ويرويان لبعضهما ما جرى لهما من "قصص حب رائعة" كما يدعيان . وكانت

دفعات الديون المؤجلة تتأخر وبما أن الأقساط يتم التأخر في دفعها، كان مبلغ القرض يتزايد. حصلت على كل هذه المعلومات من شقيق زوجتي الكبير.

أردنا منه رف كتب لنا حتى يجد لديه على الأقل عملاً يقوم به ويسكب منه بعض النقود للأيام الممطرة. وإضافة إلى ذلك، فكرنا أنه سيساعدني في وضع الكتب بانتظام. وبشكل طبيعي، لم نكن مستعجلين لاستلام الرف لذا يستطيع القيام بهذا العمل في أوقات فراغه.

بينما كنت أجلس هناك، جاءت امرأتان تحملان كيسين ليجمعا نشارة الخشب لاستخدامها في مواقدهم. وأشار غوغوش، دون أن ينظر إلى وجهيهما، إلى الزاوية وقال لهما أن تذهبا وتساعدا نفسيهما. عرضت عليه أن أصطحبهما حتى لا يأخذا شيئاً هو بحاجة إليه، ولأن نشارة الخشب قد تحتوي على أشياء جاهزةٍ أيضاً.

" إن شقيق زوجتك هو النبي الخامس، يا أخانا"، قال حالوق معلقاً. انظر إنّه لم يفكر حتى في أن يطلب من هاتين المرأتين أن تدفعا ثمن النشارة... رغم أنه لا يملك حتى خمسة قروش في جيبه

في هذه اللحظة . وبعد كل هذا، الوقود هو الوقود . يمكن أن يحضر المال، وفوق كل هذا، يحرق كعود الثقاب . وطاهر مثل ملاك . . . وكنت السبب دائماً في خسارته، ولم يجنِ أي ربح، ولا زال غير قادر على التفكير في أن يقول لي أن أحزم أشيائي وأرحل . لن تجد واحداً مثله أبداً . إنه النبي الخامس، يا أخي العزيز . . ." .

بدا أن هذا الرجل يعرف أربعة أنبياء فقط ولا يعرف عن الأنبياء الآخرين . وبالأخذ بالحسبان الفضائل التي لمسها في طاهر وبساطة عقل الأخير، لا بد أنه استنتج أنه فيما إذا كان هو النبي الخامس، فسيكون مثل طاهر لأن الرجل لديه كل صفات النبي .

" ربما قال لك طاهر إني أحب امرأة متزوجة . وفوق كل هذا، مريضة بالسرطان . لقد تخلت عني حياتي، يا أخي العزيز . إذا لم يتركني أخو زوجتك أقيم في المحل، فلا مكان لي أذهب إليه في استانبول . وعندها كل ما أستطيع فعله هو أن اخرج من هنا، واذهب إلى أي مكان آخر" .

بقيت متردداً لحظةً. هل أقول له أن يذهب؟ لا يعود الأمر لي كي أخرجه، ولكن لو سمحت لطاهر أن يلقب بالنبي الخامس فقط ليتم استغلاله بتلك الطريقة لكان الأمر أيضاً شيئاً غير مقبول عند الناس العاديين.

خرجنا برهةً. قلت لطاهر كل ما أستطيع التفكير به، هو حول كيف يمكن التخلص من هذا الرجل، لكن لم يبدُ أنه قد اقتنع إطلاقاًولهذا السبب، لم تبقَ مشكلة إلا وانصبت على رأسه. تلقى فاتورة الهاتف أكثر بثلاثة أضعاف من أجار محله ومشغله مجتمعين: لم يتمكن من دفع الأقساط المستحقة نظراً لعدم وجود عمل، وكان عليه أن يرهن كل ما يملك. لم يكن يملك قلباً ليقول كلمة واحدة سواء للرجل المتزوج مرتين أو لحالوق، فكلاهما كان مصدر خسارة كبيرة له، حتى خرجا هما من تلقاء نفسيهما ورحلا. وفي النهاية، عاد طاهر إلى رشده. ومنذ ذلك الحين، كان عليه ان يبتعد عن كل ما لديه. بعدما ضحى بسنواته العشر من العمل في مذبح المجاملة الزائفة، كان عليه أن يبدأ البحث عن عمل في مشاغل الآخرين.

سمعت مثلاً من أبي، معناه : " امدح الرجل بالحق يقدم إليك بستاناً ." لم أصادف أي شخص يمكن أن يذهب إلى هذا الحد من الإطراء على الآخرين ليحقق هدفه . والآن،، كلما رأيت أو سمعت قضية توازي قضية حالوق وشقيق زوجتي، أروي دائماً قصة النبي الخامس، لأبين كيف سمح لآلة تساوي الملايين أن تضيع من بين يديه بسبب حكاية ملفقة فقط تعتمد على الرحمة والتضحية . أقوم بهذا لأني رأيت شقيق زوجتي يعطي الآخرين كل ما يملكه، لمجرد المجاملة فقط . لكن جهودي هذه نادراً ما لاقت نجاحاً لأنه من الصعوبة بمكان أن تجعل رجلاً يفهم إذا ما كان مسمراً بمجاملات، خيالية، ولا يمكن الدفاع عنها .

* * *

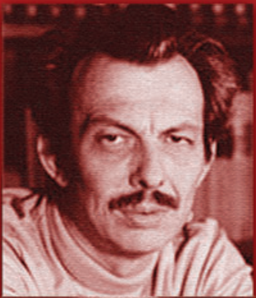
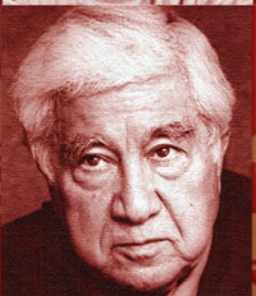
الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة




www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٥٠ ل.س أو ما يعادلها